الإمام علي

أسد الإسلام وقديسه

الكتاب الذي دخل المسابقة في المباراة الكتابية

تأليف

روكس بن زايد العزيزي

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

www.haydarya.com

الإمام علي

أسد الإسلام وقديسه

الإمام علي عليه السلام

أسد الإسلام وقديسه

الكتاب الذي دخل المسابقة في المباراة الكتابية

تأليف

روكس بن زائد العزيزي

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٧٩٣٨
التاريخ ٢٧/٣/٢٠٠٦
٨١١

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتاب العربي
بيروت

الطبعة الثانية
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أضع بين يديك - أيّها القارىء - كتاب (الإمام علي أسد الاسلام وقدّيسة) للأُستاذ روكس بن زائد العزيزي، الكتاب الّذي اشترك في المباراة الكتابيّة عام ١٣٧٦ هـ ١٩٦٦ م حول شخصية أمير المؤمنين علي عليه السّلام وإذا لم ينل الكتاب جائزة ماليّة ماديّة فقد حاز على الجائزة الروحيّة المعنويّة، وكون جوهرة أثمن من اختها فليس معنى ذلك أنّ الاولى تفقد قيمتها فلكلّ ورد رائحة، وتفضيل شيء على شيء لا يستلزم الهوان في المفضول، إضافة إلى أنّ لكلّ اجتهاد حكماً واتجاهاً خاصّاً.

وهذا الكتاب من أنفس الكتب وأمتعها، جمع فأوعى، وحلّل نفسيّة الإمام فأجاد التحليل، ووقف على خزائن درر الإمام وكلماته القصار فاختار أضوأها وأنورها.

قد عرفناك باختيارك مذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره

واختيار المرء قطعة من عقله تدلّ على فضله ونبله، وإنّك لتقرأ من خلال تلك السطور وداعة الكاتب وطيب نفسه وطهارة قلبه وسلامة ذاته، وكيف انصهرت تلك النفس بحبّ الإمام وتبجيله وتقديره وما الّذي استلفت نظره من تلك الشخصيّة وما الّذي استهواه من سيرتها حتى استطاع أن يصوّره هذا التصوير الرائع.

ولا عجب فشخصيّة الإمام تلتقي عندها قلوب العارفين والمنصفين وتلتفّ حولها آراء العلماء والمفكّرين.

كان اللقاء طيّباً وهو أول لقاء مع الاستاذ روكس والّذي تعارفت فيه الوجوه وتعانقت فيه الأرواح حول شخصيّة الإمام أمير المؤمنين فلولا ذلك لما كان هذا اللّقاء المعطّر بهذا الجو المشبع بالعواطف والظرائف، ولقد أدركت منذ أوّل التقائي بالعزيزي سبب تعلّقه بالإمام عليّ فقد بهرتني منه جلوة تلك النفس الطّاهرة النقيّة والمثاليّة العالية من حسن السّيرة الّتي دلّت على حسن السريرة. وكانت مظاهر الودّ والصفاء أوضح ما تكون بين المسلمين وبين أتباع عيسى، وقد أفاض القرآن الكريم في ذكر عيسى وولادته وفضل امّه العذراء مريم، ووصف مودّتهم للمسلمين وما في قلوبهم من رقّة ورأفة كما قال تعالى: « **وجعلنا في قلوب الّذين اتبعوه رأفة ورحمة** » وبيَّن أنّ في رهبانهم العلم والعبادة والتواضع فقال: « **ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون** - سورة المائدة - ٨٢ ».

وكلّنا يعلم كيف استقبل النجاشي ملك الحبشة وفد المسلمين المهاجرين وكيف أكرمهم وآواهم عنده وأطلق لهم الحريّة في مزاولة شعائرهم ثم ردّ رسل المشركين خائبين.

ولقد قصّ علينا القرآن قصّة الحرب بين سابور ملك الفرس وهِرقل حينما انتصر الأول على الثاني ففرح مشركوا مكّة واستاء المسلمون، فقال المشركون لأصحاب محمّد: إنّكم أهل كتاب وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم الرّوم. فانزل الله عزّ وجلّ سورة في القرآن وهي سورة (الروم) لشرح كل هذا بقوله عزّ وجلّ ﴿الٓمٓ غُلِبَت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهِم سيغلِبون في بضع سنين لله الأمر مِن قبلُ ومِن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾.

فكان هذا الوحي من السّماء فيه تعزية وسلوة للمسلمين لما حزنوا لإخوانهم المسيحيّين من أهل الكتاب بإخباره لهم أن الرّوم بعد بضع سنين - أي فيما دون العشرة - سيعودون ويغلب الروم فارساً إذ يدفعونهم عن بيت المقدس ويفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله، وقد حدد القرآن زمان ذلك وحصره فكان الأمر فيه حسب ما قال سبحانه:

والإسلام يعترف بالمسيحيّة ديناً سابقاً ويكرّم المسيح ولا يجوّز الحطّ من كرامة سيدنا عيسى وأنّه « عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيّاً وجعله مباركا أين ما كان وأوصاه بالصّلاة والزكاة ما دام حيّا وبرّاً بوالدته ولم يجعله جبّاراً شقيّاً فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّا ». كما جاء في سورة « مريم ».

ولقد كانت صلة الاخاء بين الذين اتّبعوا محمّداً والّذين آمنوا بعيسى ما قصّه القرآن العظيم. وهناك مبادىء أوليّة بين الدينين، فهما معا يصوّران جانباً كبيراً من الدعوة للفضيلة والخلق الرصين والتفاني في عمل الخير، وهما في تصوير الإنسانيّة ومبدإ الخليقة يكادان أن يكونا سواء فيما يقولان به.

خلق الله آدم وحوّاء وأسكنهما الجنّة وأوحى إليهما أنْ لا يسمعا إلى نزغ الشيطان فيأكلا من الشجرة فيخرجهما من الجنّة. والشيطان عدوّهما الّذي أبى أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لمحمّد، ووسوس الشّيطان لحوّاء وزيّن لها فزيّنت لآدم فأكلا من شجرة الخلد فبدت لهما سوْاتهما فاستغفرا ربّهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة.

وإنّك لتجد في القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لهما وتقديمه إيّاهما ما تشعر معه حقّ الشعور بهذا الإخاء، ففي سورة المائدة ١١٦ - ١١٧.

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علاّم الغيوب ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمّا توفّيتني كُنْتَ أنت الرقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد﴾.

وفي سورة آل عمران - ٥٢ - .

﴿فلمّا أحسّ عيسى منهم الكُفْر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله، آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون: ربّنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ومَكَرُوا ومكر الله والله خير الماكرين إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

إنّ المطبوع في الأذهان والمسموع به هو أنّ في المسيحيّة الشيء الكثير من الأخلاق الّتي يدعو إليها الإسلام، وأنّ من أظهر أخلاقها مجانبة الشرّ والأذى وعدم الإعتداء والإستعلاء والتطاول والتكبّر فإذا ما حدّثنا التاريخ عن حوادث خرجت على هذه الأُسس وجانبت هذه المبادىء فليست المسؤولة عن ذلك المبادىء والشرائع والنهج الذي تضمّنته الدعوة وإنّما هي الظروف والسياسة والطغيان تغيّر من المسيحي مثل ما تغيِّر من المسلم الحقيقة التي يريدها الإسلام والمسيحيّة وهل الديانات إلاّ نظم جاءت لتكفّ الإنسان عن الإعتداء على أخيه الإنسان وتهذّب النفوس وتدعو إلى الفضيلة، وهل الدّين إلاّ قوّة روحيّة وأدبيّة لا يمكن الإستغناء عنها، فإن للدّين أثراً ظاهراً في تأليف القلوب على اختلاف نزعاتها وألوانها وتباعد لغاتها وأوطانها ونرى أكثر المحافظين على أوامر الدّين ممّن اتّصفوا بحسن المعاشرة والمعاملة فلا يكذب إذا حدّث، ولا يخون إذا أئتمن، ولا يخلف إذا وعد، ولا يؤذي جاره خالفه في العقيدة أو لم يخالفه، ولا يسلب مالاً ولا يهتك عرضاً ولا يكون سبّاباً ولا نمّاماً ولا حقوداً ولا حسوداً.

إنّ الّذي يقف على طبيعة الأديان كلِّها ويفهم حقيقة تشريعها ومبادئها يشعر بوضوح وصراحة أنّها تستهدف في روحها الخير وصلاح الإنسان، وهي على رغم اختلاف ظروفها لَتَجْتَمِعُ في تلك المرامي والأهداف الإنسانيّة وإلى جنب ذلك فهي يقظة روحيّة وفكريّة.

وكثيرة هي الشواهد الّتي تدلّ على ما فعلت هذه المبادىء في تأليف القلوب وإحكام المودّة وروابط الإخاء والصداقة. ولماذا تذهب بعيدا وهذه قطعة من الشِّعْرِ الّتي يودّع بها الإمام المجتهد الكبير الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء فيلسوف الفريكة أمين الريحاني إذ يقول:

سِرْ عـــلى اليمن والشرف ودع النّفس والكلـــف
أيّهـــا الظاعن الّـــذي أخـــذ القلـــب وانصرف

ومنها:

فرحلتم مـــع الأســـى وبقينـــا مـــع الأســـف
أَلّفَتْنَـــا لَطَائِـــفٌ وَحَّـــدَتْ كـــلّ مـــا اخْتَلَـــفِ

أين لبنـــــان والعـــرا ق وأمريــــــك والنّجَــــفِ
أنـــت تلــك العصــا الّـــتي[1] قـــال خذهـــا ولا تخـــف

وهذا الشاعر القرويّ رشيد سليم الخوريّ انظر إليه كيف يحيّي عيد الفطر عند المسلمين إذ يقول:

أُكرِّم هــذا العيــد تكريم شاعر يتيــه - بآيــات النبيّ المعظّم
نعم إنــي أصبو إلى عيــد أمّــة محرّرة الأعنــاق من رِقّ أعجم
إلى علـم من نســج عيسى وأحمد وآمنــة[2] في ظلّهـا أُخـت مريم

ومن قصيدة للدكتور نقولا فياض في المولد النبويّ قال:

ومــا استقلالنــا إلاّ سبيــل لنبلــغ في ذرى العليــا مدانــا
ضرعــت إلى السّماء بحــقّ عيسى وحقّــك يــا محمّــد أن يصانــا

ومن أقوال أحمد شوقي بك أمير الشعراء في رائعته قوله:

عيسى سبيلــك رحمة وسلامــة للعالمــين وعصمــة وسلام
مـا كنـت سفّاك الدّمـاء ولا امرءً هــان الضعـاف عليــه والايتـام
يـا حامـل الآلام عن هـذا الورى كــثرت عليــه باسمــك الآلام
أنـت الّـذي جعـل العبـاد جميعهم رحما، وباسمــك تقطــع الأرحـام

هذا إلى جانب دواوين كبيرة من الشعر ورسائل مطوّلة وكتب تجاوزت العدّ عما يحبب للمسيحيين من المسلمين وما يحبّب للمسلمين من المسيحيّين من الصفات والأخلاق.

ولما كانت سخصيّة الإمام علي تمثّل الجانب المشرق من الصفات الإسلامية وسيرته تحكي القدوة من الفضائل إلى جانب تلك الروائع من الأدب والحكمة والفلسفة فاق الهيام بعليّ عند أهل العلم والفنّ والأدب والخلق الرضيّ حدود

(١) العصا آية النبي موسى بن عمران عليه السلام الّتي أبطل بها سحر السحرة ولقفت ما يأفكون. والكتمان اقتباس من القرآن.
(٢) آمنة بنت وهب أم النّبي محمّد صلّى الله عليه وآله وسلم.

التّصوير ولا سيّما عند المسيحيّين الّذين يفهمون من دينهم هذه المفاهيم المتجلّية في شخصيّة أمير المؤمنين، لذلك كان عدد الّذين يستظهرون «نهج البلاغة» من المسيحيّين والّذين يحتفظون بآيات حكمه وآدابه كبيراً جدّاً في التاريخ القديم والتاريخ الحديث.

وطالما ضمّتني مجالس المسيحيّين بلبنان وحين يمر ذكر الإمام في هذه المجالس تخفّ أرواحهم وتنتعش لذكراه نفوسهم فتحسّ بهذه النفوس وهي تكاد تذوب في حبّ علي وأولاده. وقد رأيت في دار الاستاذ فارس الخوري مرّة لوحة فضّية مهداة له من أحد عارفي فضله، وقال لي انّه يراها أعزّ ما لديه وقد كتبت عليها بالفضّة ثلاث كلمات قصار من كلمات الإمام عليه السلام:

الاولى: «إقلع الشرّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك».

الثانية: «قيمة كلّ امرء ما يحسن»

الثالثة: «ما رأيت نعمة موفورة إلاّ وإلى جانبها حقّ مضيّع»

الحقّ أنّ كلّ كامل وفاضل لا بدّ أن يرتاح لهذه الذات المقدّسة والشخصيّة الفذّة الّتي تتمثّل فيها الأخلاق بتمام معانيها فلا يعرف الفضل إلاّ ذووه.

كتب الفيلسوف جبران خليل جبران فيلسوف لبنان حول الصورة الّتي رسمها للإمام بريشته ما نصّه:

في عقيدتي أنّ ابن أبي طالب هو أول عربي لازم الروح الكليّة وجاورها وسامرها وهو أوّل عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها فردّدها على مسمع قوم لم يسمعوا بمثلها من ذي قبل فتاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم.

فمن أُعْجِبَ بها كان إعْجَابهُ موثوقا بالفطرة ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية.

مات عليّ بن ابي طالب شهيد عظمته، مات والصلاة بين شفتيه، مات وفي قلبه الشّوق إلى ربّه ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتى قام من جيرانهم الفرس أُناس يدركون الفارق بين الجواهر والحصى.

مات قبل أن يبلّغ العالم رسالته كاملة وافية. غير أنّني أتمثّله مبتسما قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض.

مات شأن جميع الأنبياء والباصرين الّذين يأتون إلى بلد ليس ببلدهم وإلى قوم ليس بقومهم، في زمن ليس بزمنهم. ولكن لربّك شأن في ذلك وهو أعلم.

وكتب توماس كارليل في أبطاله فقال:

أما عليّ فلا يسعنا إلاّ أن نحبّه ونتعشقه، فإنّه فتىً كبير النفس جليل القدر يفيض وجدانه رحمة وبرّاً، ويتلظّى فؤاده نجدة وحماسة. وكان أشجع من ليث ولكنّها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان، جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى.

وقد قُتِلَ بالكوفة غيلة وانّه لشدة عدله حَسِبَ كل إنسان عادلا مثله.

وقال حينما اومر في قاتله: إن أعش فأنا وليّ دمي، وإن أمت فاضربوه ضربة. وإن تعفو أقرب للتّقوى.

وقال ابن إسحاق الموصلي كما روى البيهقي في «المحاسن» والصبان في «الإسعاف».

عدي وتيم لا احاول ذكرهم ... بسوء ولكنّي محبّ لهاشم
وما يعتريني في عليّ ورهطه ... إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبّهم ... وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم إنّي لأحسب حُبَّهُم ... سَرَى في قلوب الناس حتّى البهائم

وبين يدينا ملحمة الأديب الصحفي عبد المسيح الأنطاكي صاحب جريدة «العمران» المصريّة وهي أكبر ملحمة نظمت في الشعر العربي وتحتوي على ٥٥٩٥ بيتاً. عدّد فيها فضائل الإمام وأخلاقه وبطولته وسرد الحوادث التاريخية في عصره وقد أسماها بـ «العلوية المباركة».

وهذا الأديب اللبناني بولس سلامة عبّر عن رأيه في هذا الإمام في رائعته الّتي كان عنوانها «عليّ والحسين» ثم أعقبها بملحمته الّتي أسماها «عيد الغدير».

ومن تقدمة هذه الملحمة تعرف ما للإمام من منزلة في قلوب المسيحيّين بسبب هذه الفضيلة الّتي أشرت إليها إذ يقول:

إنّ هذا الإمام يذكره المسلمون فيقولون: كرّم الله وجهه. وعليه السلام ويذكره النصارى في مجالسهم فيتمثّلون بحكمه ويخشعون لتقواه، ويتمثّل به الزّهاد في الصوامع فيزدادون زهداً وفتوناً، وينظر إليه المفكّر فيستضيء بهذا القطب الوضّاء، ويتطلّع إليه الكاتب الألمعي فيأتمّ ببيانه، ويعتمده الفقيه المدره فيسترشد بأحكامه.

أمّا الخطيب فحسبه أنْ يقف في السفح ويرفع الرّأس إلى هذا الطود الشامخ لتنهل عليه الآيات من عل، وينطلق لسانه بالكلام العربي المبين الّذي رسّخ قواعده أبو الحسن.

ويقرأ الجبان سيره عليّ فتنهدر في صدره النّخوة وتستهويه البطولة إذ لم تشهد الغبراء ولم تظلّ السماء أشجع من ابن أبي طالب، فعلى ذلك الساعد الأجدل اعتمد الإسلام يوم كان وليدا. فعليّ هو بطل بَدْر وخَيبر والخندق وحنين.

وأعجب من بطولته الجسدية بطولته النفسية فلم يُر أصبر منه على المكاره إذ كانت حياته موصولة الآلام منذ فتح عينيه على النّور في الكعبة حتى أغمضهما على الحقّ في مسجد الكوفة.

وبعد فَلِمَ تجادلني في أبي حسن أَوَ لَمْ تقم خلال العصور فئات من النّاس تؤلّه الرّجل.

ولا ريب أنها الضّلالة الكبرى ولكنّها ضلالة تدلّك على الحقّ إذ تدلّك على مبلغ افتتنان الناس بهذه الشخصيّة العظمى.

وقال في مقدمة رائعته التي أسماها « علي والحسين »:

في عنق الشاعر العربي دين للإسلام، سواء كان الأديب مسلماً أو مسيحيّاً، إذ أنّه لم يجرِ قلم بالفصاحة إلا وعليه رشاش من غيث القرآن الكريم ولم يكتحل جفن بسحر البيان إلاّ وقد أشرف من باب رحب على هذه المروج الخضر الّتي تعهّدها الإسلام بالمـــــاء والظلال. وأوّل من يطلّ عليك من هذه الجنان بعد الرسول هو سيّد البلغاء وفارس الإسلام وسدرة المنتهى في الكمال الإنساني علي بن أبي طالب.

أجل لا غرابة إذا طلع علينا الاديب الكبير الاستاذ روكس العزيزي بمؤلفه الرائع وبحثه الرصين بعقوده الدرّية وسلاسله الذهبيّة. فالعزيزي له شهرته الواسعة الأطراف، المعمورة النواحي بالإجلال والإكبار في العالم العربي وهذه بحوثه ومؤلفاته الأدبية تزدان بها الصحف والمجلات، وهي ولم تزل تصابحنا وتماسينا يترشّفها الرأي العام والفكر العالي وتتذوّقها الطبقات المتأدّبة.

أقول لا غرابة إذا طلع علينا العزيزي بهذا الكتاب فهو من المسيحيّين الّذين يعشقون الفضيلة وعليّ قدوة لهذه الفضيلة. ولا ابالغ إذا قلت إنّ مشروع المباراة الكتابيّة عن الإمام كان العزيزي أكثر من عاضدني وساعدني بداعي تلك المثل، فقد كانت رسائله أمتع للنفس من لقاء الحبيب وأعذب من نسمات الفجر وأجمل من الزّهر وكانت تبعث في النّفس روح الأمل ومواصلة العمل فقد قام بنشرة عن فكرة المباراة عن الكتابة عن شخصيّة الإمام في صحف الاردن، وحمل دار الإذاعة الاردنية على إذاعة النداء الّذي وجهناه إلى أعلام الفكر للإشتراك في الكتابة عن عليّ عليه السلام ثم تجشّم عناء السّفر وحضوره في المهرجان الكبير الذي عقد في كربلاء المقدسة - مدينة الحسين بن علي عليه السلام - وأسهم بالإلقاء والتحدث عن الإمام بكلمة نفيسة عذبة موجزة تشبه المعجزة فللّه درّك يا أبا عادل

واسلم بدعاء المخلص

جواد شبّر
أمين سر اللجنة

الباب الأول

مقـــدّمة

أحببت الإمام عليّاكرّم الله وجهه، من اليوم الّذي قرأت فيه سيرته الخصبة، وحياته النبيلة، وقد كنت أحسّ بأنّ انقسام النّاس فيه دليل على العظمة!

وكم كنت أودّ أن اسجّل انطباعاتي عنه فأتهيّب، كالّذي يريد أن يخوض البحر، وهو يرى البحر للمرّة الاولى في حياته!

أو كالذي يحاول أن يحلّق في الجوّ وهو يجهل الطّيران!

هذا هو الشعور الّذي كان يخامرني كلّما مددت يدي إلى القلم!

كنت في الخامسة والعشرين من عمري يوم كتبت مقالاً عنوانه «قِدّيس الإسلام».

قرأته على صديق لي، فقال: «هذا شعر! لكن ثق بأنّك لن ترضي النصارى، ولا تُعْجِب المسلمين! ستكون متّهماً على أي حال!...».

وطويت المقال وها أنذا بعد أكثر من خمس وثلاثين ســـنة أشعر بأنّ سحر هذه الشخصيّة يجذبني لأكتب، فإذا كتبت شيئاً يستحقّ القراءة، فإنّما أكتب بوحي من أسد الإسلام وقِدّيسة.

المؤلف

بين يدي الإمام علي

تحيّة خالدة أسد الإسلام!
تحيّة خالدة قديس الإسلام!
تحيّة خالدة أبا الحسن!
تحيّة أيّها الرجل العظيم.
تحيّة لبطولتك.
تحيّة لإنسانيتك.
تحيّة لبلاغتك.
تحيّة لتسامحك.
تحيّة لصبرك.
تحيّة لحكمتك.
تحيّة لصراحتك.
تحيّة لعدلك.
تحيّة خالدة لهذه المزايا الّتي اجتمعت في شخصيتك الفذّة.

لتكون إنساناً عظيماً، انقسم الناس فيه:
أ - بين معظّم مخلص في تعظيمه.
ب - مؤلّه مغرق في تكريمه.
ج - شاتم ناقم، متحامل في حقده، مفتر عليك في تأثيمه وتجريمه!...
بتواضع عميق أتقدّم إليك يا أبا الحسن وبشيء كثير من التهيب أتقدم بهذا

البحث إلى لجنة العلماء الّتي ألمّ كل عضو من أعضائها بكل دقائق الموضوع أشدّ الإلمام.

هي تحيّة إعجاب!.

بل هدية إعجاب يا أبا الحسن، والهديّة لا ترد وإن تفهت، ولا سيّما إذا كانت مجرّدة من الأغراض، إلا الإعجاب الشديد بانسانيّتك وبطولتك وعظمتك.

* * *

فلقد كنت مثالاً فذّاً في الإنسانية والبطولة، والإنسانيون الأبطال يحبّون أن يخاطبهم الناس إلى القلب، بلا تكلف!

فتنازل واقبل مني هذه التحيّة، فأنت عظيم حقّاً، ولو لم تكن كذلك ما استطاع تأثيرك أن يمتدّ إلى قلمي، ويحرّكه بعد أجيال متطاولة، فأنا لست مسلما، ولست من شيعتك يا أسد الإسلام وقِدّيسه، لكنّي أحد الّذين يعظّمون البطولة، ويعجبون بالعبقريّة، ويقدّسون الإنسانية!...

* * *

فلا دخل للعاطفة الدّينيّة فيما أكتب!

فأنت إنسان تعذّب في سبيل مثله الأعلى، ومن حقّه على كل مفكّر أن يسجّل ما في حياتك الخصبة، من أسرار العظمة.

من الواجب على كلّ مفكّر حر الفكر من أي دين أو لون أن يسجل لك أنّك كنت أعظم من المتاعب، وأكبر من الصعوبات وأسمى من الخصومات.

أجل من حقّك على كل قلم مخلص أن يؤدّي حقّك! أجل من حقّ البطل أن يُمَجَّد، ومن حقّ الصادق أن يعظّم، ومن حق الإنسان أن يحيّى إجلالا لإنسانيته، فما كل بطل إنساناً. لكنّك أبا الحسن كنت رجلاً بل أسداً، وإنساناً!.

اجتمعت المنافسة الحاقدة، والغيرة الموتورة، والحسد القاتل، والأنانية الّتي لا تعرف الله ولا تخضع لوازع من ضمير.

اجتمعت هذه كلّها، واتّفقت على أن تصوّر قدّيس الإسلام «أبا الحسن» متّهما في أبشع جريمة عرفتها طفولة الإسلام.

« اغتيال إمام المسلمين في داره، وترويع حرمه، وتلطيخ قرآنه بدمه »
وهكذا سرت الإشاعة المغرضة سريان النّار في الهشيم، في ليلة عاصفة!
وإذا أردت أن تقتل عدوّك، فسلّط عليه إشاعة بين العامة! وهكذا حمل كلّ عاميّ تهمة لا سبيل إلى البراءة منها!
« قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا!
فما اعتـــذارك في قول إذا قيـــلا! »
ما أشنع أحكام العامّة الحاسمة المبرمة!

ما كنت بالقاتل، ولا كنت بالمتآمر، فهناك ألف دليل على أنّك دافعت وأخلصت في الدّفاع وحاميت، ولكن إذا حلّ القضاء عاد سعي الرجل وإخلاصه وبالاً عليه.

لقد أخلصت النّصيحة، فجاء المغرضون يسوقون الخليفة إلى الهاوية.

أما روى الطبري أنّ « عمرو بن العاص » كان شديد التّحريض والتأليب على « عثمان » وكان يقول: « والله إنّي كنت لألقى الراعي فاحرّضه على « عثمان » فضلاً عن الرؤساء والوجوه، فلمّا سعر الشّر بالمدينة خرج إلى منزله بفلسطين، فبينما هو بقصره ومعه إبناه إذ مرّ به راكب من المدينة فسألوه عن عثمان فقال محصور، « عمرو » أنا أبو عبد الله. « العير يضرط والمكواة بالنّار ».

أجل لم تبايع، لأنّك لم تستشر، ولم يرع لك حقّ، فقلت بصراحة لاغمغمة فيها إذ قلت في اليوم الثاني من السقيفة بعد البيعة العامة لأبي بكر: « أفسدت علينا أمرنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقّاً! ».

فاتّخذ الّذين أرجفوا بأنّ لك يدا في اغتيال الخليفة، قولتك هذه حجّة عليك وهي حجّة لك لو أنصفوا.

أما كان الأجدر أن يذكروا قولك: « فأمسكت يدي حتّى رأيت راجعة النّاس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد (ص) وآله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة فيه عليَّ أعظم من فوت ولا يتكم ».

أجل لو عرفوا قيمة الإخلاص لاتخذوا قولك هذا دليلا وأعظم دليل على أنّك الغيور على الإسلام هذه الغيرة لا يمكن أن يرضى عن ثلمة فيه!

ما قدّروا إعراضك عن الّذين بذلوا لك نصرتهم متبرعين، فكان جوابك: «حتى كنت أنا الّذي أبيت لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإسلام!».

ما علموا أنّك يوم أمسكت يدك عن البيعة، لم تصنع ذلك أنانية منك، بل قلت: «اللّهم أنت تعلم، أنّه لم يكن الّذي كان منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الطعام، لكن لنرد المعالم في دينك، ونظهر الصلاح في بلادك.

فإذا كان النّاس قد فسَّروا إخلاصك على غير ما أردت، فلا عليك أبا الحسن! إنّ كلّ شيء في الحياة ممكن إلاّ إرضاء الحاسد.

وإنّ كلّ شيء ممكن إلاّ إقناع الّذي يحسدك على سمعة حسنة، أو فضيلة ممتازة، وقد كانت سمعتك الطيّبة يا أسد الإسلام، وفضائلك الممتازة يا قِدّيس الإسلام، من شجاعة وبطولة وكرم ووفاء تثير حولك عاصفة من الحسد الذي لا سبيل إلى وأده، ولا طريقة إلى تلافيه!

ابتسامة رقيقة عذبة، تدلّ على أنّك تلقى طرازاً خاصّاً من البشر، طبع على اللطف والإنسانية، غير مخيّر.

وهيبة تصغر عندها هيبة الاسود، هي هيبة الواثق بنفسه، المعتمد على ربّه.

وبشاشة تدل على طفولة القلب التي ترافق العظماء، دائماً، تلك الطفولة التي لا تعرف الجبن، ولا تفهم الخوف، ولا تتهيب التجديد.

طفولة قلب لا تعرف النّفاق، ولا تفهم المواربة، ولا تؤمن بالخداع!

وكيف لا يكون كذلك الرّجل الّذي ما عرف الإسلام له نظيراً، ولعلّ من الإلهام أن يدعى « حيدرة »، ثم يسمّى « عليّاً ».

هذا هو الأنزع البطين.

ربعة من الرجال، إلى القصر أقرب، وإلى السمن، هو أدعج العينين، أنجل، في عينه لين؛ أزج الحاجبين، حسن الوجه، من أحسن الناس وجهاً، يميل إلى السمرة، كثير التبسّم؛ أصلع ليس في رأسه شعر إلاّ من خلفه، ناتىء الجبهة، له حفاف من خلفه، كأنّه إكليل، وكأنّ عنقه إبريق فضة، كثّ اللّحية. لحية زانت صدره، لا يغيّر شيبه.

« ومن هوى الصدق في قولي وعادته ».

رغبت عن شعر في الرأس مكذوب! »

كان أرقب، عريض ما بين المنكبين، لمنكبيه مشاش كمشاش السبع الضاري. « وفي رواية » عظيم المشاش كمشاش السّبع الضاري، لا يبين عضده من ساعده

ادمجت إدماجاً. عبل الذراعين شثن الكفين. «وفي رواية» رقيق الأصابع، شديد ساعد اليد لا يمسك بذراع رجل قط إلاّ أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس. ضخم البطن، أقرى الظهر، عريض الصّدر، كثير شعره ضخم الكسور، عظيم الكراديس، غليظ العضلات حمش الساقين ضخم عضلة الذراع، دقيق مستدقّها، ضخم عضلة الساق، دقيق مستدقها، إذا مشى تكفّأ، وإذا مشى إلى الحرب هرول، قوي شجاع، منصور على من لاقاه، أيّده الله بالعزّ والنصر!

ولادة الإمام علي

في البيت الحرام، بمكة المكرمة، يوم الجمعة ثالث عشر رجب الحرام، بعد عام الفيل بثلاثين عاماً، سمع استهلال الإمام علي. فدعي « حيدرة »! لأب نبيل هو شيخ البطحاء ولامّ شريفة هي فاطمة بنت أسد بن هاشم، فكان أوّل هاشمي ولد بين هاشميين، فكانت امّ الإمام علي للرسول بمنزلة الام لأنّه ربّي في حجرها وهو ابن ثماني سنين، وكان شاكراً لبرّها ويسمّيها أُمّي!

ولّما توفيت، كفّنها الرسول بقميصه. وأمر من يحفر قبرها، فلمّا بلغوا لحدها حفره بيده واضّجع فيه، وقال: « **اللّهم! اغفر لامّي فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجتها، ووسّع عليها مدخلها** » فقيل يا رسول الله: « رأيناك صنعت شيئا لم تصنعه بأحد قبلها! ».

فقال: « **البستها قميصي لتلبس من ثياب الجنّة، واضّجعت في قبرها ليوسّعه الله عليها، وتأمن من ضغطة القبر. إنّها كانت من أحسن خلق الله صنعاً إليّ بعد أبي طالب...** »

كانت ولادته في البيت الحرام إيذاناً بأنّ الأصنام قد هُزمت إلى الأبد!

شجاعته

جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد قوله: «أمّا شجاعة علي، فإنّه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة، يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة. وهو الشجاع الّذي ما فَرّ قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الاولى إلى ثانية، إذا علا قدّ، واذا اعترض قط ولا دعي إلى مبارزة فنكل، وهذا كلّه من الامور العجيبة الّتي لم تتفق لغير علي بن أبي طالب.

وكان يقول: **« ما بارزت أحداً، إلاّ أعانني على نفسه »، وكانت العرب تفتخر بوقوفها في مقابلته في الحرب.**

ولما افتخر حسّان بقتل عمرو بن عبدود في شعر له، ردّ عليه فتى من بني عامر فقال من أبيات:

«كذبتم وبيت الله لاتقتلوننا ... ولكن بسيف الهاشميين فافخروا
بسيف ابن عبد الله أحمد في الوغى ... بكفّ عليّ نلتم ذاك فاقصروا
«عليّ» الّذي في الفخر طال بناؤه ... فلا تكثروا الدّعوى علينا فتحقروا

وكان أهل قتلاه يفتخرون بأنّ قتلاهم صرعوا بسيف عليّ بن أبي طالب لا بسيف غيره.

ولعلّ أروع مواقف البطولة والشجاعة. مبيته على الفراش ليلة الغار وقد أحاط النفر من قريش بالدّار ليفتكوا بمن في الفراش! فلا وهت همته، ولا خارت عزيمته، ولا تطرّق الخوف إلى قلبه!

أمّا سيره بالفواطم من مكة بعد الهجرة، وليس معه من يشدّ له إزرا أو يحمي من الطعن له ظهرا، ولا صدرا، ولم يكن معه سوى ابن أُم أيمن، وأبي واقد الليثي، وهما لا يغنيان شيئا، فلحقه ثمانية فرسان من قريش أمامهم جناح مولى حرب بن امية، فأهوى إليه جناح بالسيف، وجناح فارس وعلي راجل فحاد علي عن ضربته، وضربه لما انحنى على كتفه، فقطعه نصفين، حتى وصلت الضربة إلى قربوس فرسه، وانهزم الباقون!...

أمّا يوم بدر فقد قتل الوليد بن عتبة، وشرك في قتل عتبة، وقتل جماعة من أبطال قريش.

وفي يوم احد أباد أصحاب اللواء جميعهم على أصح الروايات وأصدقها. ولّما فرّ القوم عن النبي لم يثبت للدفاع عنه إلاّ الإمام علي!...

ويوم جبن المسلمون كلّهم عن مبارزة عمرو بن عبد ود: لم ينهد له إلاّ الإمام علي، وبقتله انكسرت شوكة أعداء المسلمين وباءوا بالخذلان!

ماذا اعدّد من مواقفه؟

فيوم خيبر.

ويوم حنين، تلك الغزوة الّتي فرّ فيها الناس هرباً عن النّبي ولم يثبت معه سوى عشرة، تسعة منهم من قريش علي أحدهم!

وفي يوم الجمل لم يسمع بمثل ما صنع علي بن أبي طالب.

ومن شجاعته الخارقة للعادة موقفه في صفّين يوم الهرير، قال بعض الرواة: « فوالله الّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً، ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السّموات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب علي، إنّه قتل في ما ذكر العادّون زيادة على خمسمئة من أعلام العرب، يخرج بسيفه منحنياً، فيقول معذرة إلى الله واليكم من هذا، فكنّا نأخذه ونقومه ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم في عرض الصف، فلا والله ما ليث أشدّ نكاية منه بعدوّه.»

وأمر عليه السلام بالجمل أن يحرق، ثم يذرّى في الريح وقال عليه السلام «لعنه الله من دابة، فما أشبهه بعجل بني إسرائيل». ثم قرأ «**وانظر إلى إلٰهك الّذي ظلت عليه عاكفاً لنحرّقنّه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفاً**».

حقاً إنّي لأجدني عاجزاً عن تعداد مناقبه في الشجاعة، ولو أردت أن أُعدد كل ما ذكر عنه لكنت كمن يريد أن يقول إن الشمس منيرة والقمر زاهر، فماذا عساني أن أقول في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل. ويكفي أن نذكر قوله كرم الله وجهه يوم قيل له: « يا أمير المؤمنين ألا تعدّ فرساً للفرّ والكرّ؟ » فقال: **« أمّا أنا فلا أفرّ ومن فرّ مني فلا أطلبه! »**.

ولعل أعظم شهادة لشجاعته أن يكون صاحب الراية:

* * *

أ - في غزوة ودّان وهي أول غزوة حمل فيها راية في الإسلام مع النبيّ (ص).

ب - في بدر وهي البطشة الكبرى.

ج - وفي يوم احد جمعت له الراية واللواء.

د - وفي الغزوات التالية: حمراء الأسد، والحديبيّة، وحنين، وذات السلاسل، وفي غزوة بني النظير، وغزوة خيبر!

حلم ولطف

الحلم واللطف والكرم والشجاعة، فضائل ينتمي بعضها إلى بعض، وقد ألمنا بشجاعة أبي الحسن، فلنذكر شيئا عن حلمه، الّذي كان يجيء أبدا وهو قادر على غير الحلم!

حقّاً إنّه لو لم يكن له من مواقف الحلم إلاّ صفحه عن أهل الجمل، وقد جاءوا بالفتنة الكبرى الّتي كانت تهدّد الإسلام.

وكانت سبباً لفتن دامية اصطبغ بها وجه الإسلام زمنا طويلا، فصفح الإمام العظيم، وتناسى كل ما كان، من خصومه الالدة، وأعدائه الزرق.

وكان في طليعتهم مروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير.

وكان عبد الله بن الزبير يشتم الإمام عليّاً كرم الله وجهه على رؤوس الأشهاد، ومع هذا فإنّه صفح عنه صفح الكريم العظيم، فلم يعاقب أحداً من أهل الجمل، ولا تعرّض لأحد من أهل البصرة بسوء، ولم يكتف بذلك بل أطلق مناديه في عسكره:

«أن لا يتبعوا مولّياً، ولا يجهزوا على جريح، ولا يقتلوا مستأسر ومن ألقى سلاحه فهو آمن!»

أجل إنّها سنّة عرفها من ابن عمّه الأعظم، ودرس تلقّاه من يوم فتح مكة!

حقّاً إنّ كل حلم وكل لطف وكل صفح يتصاغر عند حلمه يوم ملك عليه أهل الشام الشريعة ومنعوه وأصحابه من الماء، ثم ملكها عليهم وأشار عليه أصحابه أن يمنعهم واحدة بواحدة، فأجاب لا والله لا اكافئهم بمثل فعلهم!

ولّما ظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة، لم يزد على الإعراض عنه!

فرجل عرف بالشجاعة والبطولة تبلغ فيه السماحة النفسية والحلم إلى هذه الدرجة، بعد أن مكّنه الله من خصومه، لا بدّ أن يكون طرازاً خاصّاً من الرجال.

إنسانيته

لعلّ الأبطال الشجعان، المتسامحين، أقرب النّاس إلى الإنسانية لما ركّب في طباعهم من الشمم والتسامي!

إنّ الأسد نفسه وهو أشدّ خلائق الله بطشاً إذا رأى الضّعف ترفع عن الإفتراس

يروى أن أسداً فر من قفصه في فلورنسه، إحدى مدن إيطالية، فذعر الناس وفرّوا من الشوارع، ورأته امرأة تحمل طفلها ولخوفها سقط منها الطفل، فدلّتها فطرة الامومة على التضرّع، فركعت ورفعت يديها فحاد عنها الأسد من غير أن يمسها أو يمس ابنها بسوء.

وهؤلاء الأبطال الحقيقيّون فيهم من شمم الأسد وتساميه فلا نعجبنّ إذا رأينا أبا الحسن والذي لم يهزم في معركة، يضرب للناس المثل الأعلى في الإنسانية.

حقّاً إنّ إيصاءه لجيشه أن لا يتبعوا مدبراً، ولا يجهزوا على جريح، وعدم منعه الماء لعسكر معاوية يوم صفّين لّما استولى عليه بعد ما منعوه منه أعظم دليل على الإنسانية الّتي لا تكلف فيها.

ومن آيات إنسانيته، أنّهم جاءوا عمر بامرأة أجهدها العطش فمرّت على راع واستسقته... فأبى أن يسقيها إلاّ أن تمكّنه من نفسها... ففعلت فشاور عمر الناس في رجمها، فقال علي: «**هذه مضطرّة إلى ذلك.. فخلّ سبيلها!**»[1].

ومن إنسانيته أنّه فرض الرفق بالرعيّة على كل وال فلا إرهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هي صاحبة الحقّ في المثال.

---

(١) عبقرية الامام - للعقاد.

ومن إنسانيته، وصاياه المكررة لولاته: «أنصفوا الناس من انفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنّهم خزان الرعية، ولا تحسموا أحداً عن حاجة ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعنّ للنّاس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يحتملون عليها، ولا عبداً، ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم!»

★ ★ ★

ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات: «.. إمض إليهم بالسّكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلّم عليهم ولا تخدج بالتّحية لهم، ثم تقول: «عباد الله، أرسلني إليكم وليّ الله وخليفته لآخذ منكم حقّ الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم حق فتؤدّوه إلى وليّه؟ فان قال قائل: «لا!» فلا تراجعه... وإن أنعم لك منعم، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعّده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل، فلا تدخلها إلاّ بإذنه، فإنَّ أكثرها له... فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلّط عليه، ولا عنيف به.. ولا تنفرنّ بهيمة ولا تفزعها، ولا تسوءنَّ صاحبها فيها، واصدع المال على صدعين، ثم خيّره، فإذا اختار، فلا تعرض لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يفي ما فيه وفاء حقّ الله في ماله... فاقبض حقّ الله منه فإن استقالك فأقله..»

فهذا الدستور الإنساني الرفيع يدلّ على نفس طبعت على الإنسانية والخير، والمحافظة على كرامة الإنسان وعدم تعقيد نفسيّته بالظّلم والحيف والإرهاق!

ننتقل إلى لون آخر من إنسانية الإمام علي، فقد كان يكتب إلى واليه: «تفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله.. فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم، لأنّ النّاس كلّهم عيال على الخراج لأنّ ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة ومن حبب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلاّ قليلا، وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنّما يعوز أهلها إسراف الولاة في الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلّة انتفاعهم بالعِبر...»

من إنسانيته نصيحته للأشتر: اشعر قلبك الرحمة للرعيّة، والمحبّة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم. فإنّهم صنفان:

أ - إمّا أخ لك في الدين.

ب - وإمّا نظير لك في الخلق.

« تفرط فيهم الزلل، وتعرض لهم العلل، وتؤتى بأعلى أيديهم في العمد والخطاء فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الّذي تحبّ وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. فإنّك فوقهم ووالي أمرهم عليك فوقك. والله فوق من ولاّك. وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم....».

« ولا تندمنّ على عفو، ولا تتبجحنّ بعقوبة، ولا تسرعنّ إلى بادرة وجدت عنها مندوحة. ولا تقولنّ إنّي مؤمَّر آمر فاطاع، فإنّ ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدّين وتقرّب من الغير، وإذا أحدث لك مما أنت فيه من سلطانك أُبَّهة أو مخيّلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك. فإنّ ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكفّ عنك من غربك، ويفيء إليك بما غرب عنك من عقلك. إيّاك ومساماة الله في عظمته. والتشبّه به في جبروته. فإنّ الله يذلّ كلّ جبّار و يهين كل مختال!....».

فأنت إذا قرأت هذا وقفت أمام جبل من الأخلاق وكنز من الإنسانية وعوالم من التهذيب النفسي!..

وإذا أردت أن تعلم ما هو أسمى من ذلك، فاسمع التهذيب والتأديب الّذي يؤدّب به ولاته، ليسمو بهم من مواطن الشبهات، ويرفعهم إلى أرقى مستوى من الإنسانية، فسر معي لنقرأ قوله لعثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة: «أمّا بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان. وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيّهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم... فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه.».

أرأيت سمو الإحساس الإنساني؟! إنّ قوماً عائلهم مجفو وغنيّهم مدعو لقوم ليس للإنسانية عندهم مكان، فطعامهم على ذوي الإحساس الإنساني المهذّب حرام!

هذا هو الإمام علي، يدخل إلى النّفس البشريّة، ويغوص في ضمير الحاكم، وإحساس الوالي، ليجعله يمثّل العدل الإلٰهي على الأرض، ويمثّل النزاهة السامية الّتي لا يتطرّق إليها الشّكّ ولا تحوم حولها الشبهات!

فإذا وصل الوالي من التهذيب النفسي إلى هذه الدرجة، فقد بلغ المرتبة الإنسانية الّتي تجعله جديراً بأن يمثّل الإمام الأعظم قِدّيس الإسلام!

ومن إنسانية علي التي كانت تجعل نفسه تحس بأخلاق الرّجل إحساسا يكشف خبايا قلوبهم، كشفاً أعمق من الفراسة، وأسمى من التصوير، وأرق من تبادل الإحساس.

فاسمع وصفه للرّجال بالإحساس الإنساني الّذي لا يكذّب صاحبه فقد قال لابن عباس يوم أرسله إلى طلحة والزبير: «لا تلقينّ طلحة، فإنّك إن تلقه تلقه كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعب، ويقول هو الذلول، ولكن إلق الزبير فإنّه ألين عريكه فقل له: «يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني في العراق فما عدا ممّا بدا».

انظر إلى هذه النظرة الإنسانية البكر في قوله: خالطوا النّاس مخالطةً إن متّم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنّوا إليكم!»

وقوله الّذي يدلّ على لباب الإنسانية والترفّع والنبل، وقد مارس ذلك فعلا: «إذا قدرت على عدوّك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه!»

ومن إنسانيته أنّه كان يترفّع عن الشتم، ويطلب من أصحابه أن يترفّعوا عنه، لأنّه كان يؤمن أنّ السفاهة كاسمها، وأنه لا يليق بالإنسان المهذّب أن يكون شتّاماً، مهما تكن الخصومة بينه وبين الناس حادّة والعداوة فتّالة

«إني أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إيّاهم: اللّهمّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم، حتّى يعرف الحقّ من جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به!».

فهل أكتفي بما ذكرت؟ لأنّي لو رمت أن اتابع هذه النقطة وحدها، لأربت على ما هو مخصّص للكتاب من صفحات.

فقد وهب الله له العناصر الأساسية لمكوّنات الشّخصية الإنسانية النبيلة:

أ - تواضع لا يعرف الغرور، ولا التعاظم، فهو بين رجاله كواحد منهم

ب - وعدل بلغ بصاحبه حدّ الميزان الدقيق الحسّاس، دقّة، إلى درجة أنّه ساوى بين نفسه وبين النّاس في العطاء.

ج - وزهد لا يعرفه إلاّ النسّاك المتبتّلون لله المنقطعون للعبادة، فلبس خشن، ومأكل جشب، لئلاّ ينسى الفقراء، ويظلّ ذاكراً فقراء رعيّته، ماراً بالتجربة النفسية الّتي يمرّون بها يوميّاً.

د - وحلم وصفح صغَّر كلَّ ما عرف عن حلماء العرب.

هـ - وشجاعة أدبية لا تعرف المواربة، ولا تفهم المراوغة والمداجاة.

و - شجاعة أزرت ببطولة كل بطل.

ز - وصفاء ذهن يوحي بأحكام عبقريّة يقف عندها كل عبقري ذاهلا.

ح - وجود شهد له به الّذي فرض شتمه من على المنابر معـــاوية بن أبي سفيان:

«لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن، لأنفق تبره قبل تبنه!».

ط - وثقة بالله لا يُعرف لها مثيل، فقد كان يكنس بيوت الأموال ويصلّي فيها، ويقول يا صفراء ويا بيضاء غرّي غيري، ولم يخلف ميراثا، وكانت الدنيا كلها بيده، عدا الشام، ولم يعمل بآية النجوى غيره. وأعتق ألف عبد من يده، ولم يقل لسائل لا قط.

ومن إنسانيته الّتي لا تجارى، خبر المجنونة الّتي قامت عليها البيّنة في عهد عمر، أنّه فجر بها رجل، فأمر عمر بجلدها، الحدّ، فمرّ بها علي فقال: «ما بال مجنونة آل فلان تقتل؟».

فقيل له: «إنّ رجلاً فجر بها وهرب، وقامت البيّنة عليها، فأمر عمر بجلدها!».

فقال: «ردّوها إليه وقولوا له أما علمت أنّ هذه مجنونة آل فلان، وأنّ النّبي (ص) قد رفع القلم عن المجنون حتّى يفيق، إنّها مغلوبة على عقلها، ونفسها فردّت إليه وقيل له ذلك فقال: «فرّج الله عنه، لقد كدت أهلك في جلدها!....

ومن ذلك قصة الّتي ولدت لستة أشهر:

وفي إرشاد المفيد: «روي عن يونس بن الحسن أنّ عمر أُتي بامرأة ولدت لستة

أشهر، فهمّ برجمها، فقال له علي:« إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إنّ الله تعالى يقول: « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ويقول جلّ قائلا: « والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين » وكان حمله وفصاله ثلاثين شهراً. وكان الحمل فيها ستة أشهر. فخلى عمر سبيل المرأة، وثبت الحكم بذلك. فعمل به الصحابة والتابعون، ومن أخذ عنهم إلى يومنا هذا!

ومن الأدلّة على إنسانيته، حادثة الحامل التي زنت.

روي أنّ عمر أُتي بحامل زنت، فأمر عمر برجمها. فقال له علي: « هب أنّ لك سبيلاً عليها، فأي سبيل لك على ما في بطنها والله تعالى يقول: « ولا تزر وازرة وزر اخرى ». فقال عمر: « لا عشت لمعضلة لا يكون لها أبو الحسن » ثم قال: « فما أصنع بها؟ » قال: « احتط عليها حتى تلد، فإذا ولدت ووجدت لولدها من يكفله، فأقم عليها الحد! ».

ومن إنسانيته، أنه كان يسقي بيده النخل لقوم من يهود المدينة، حتّى مجلت يده، ويتصدّق بالاجرة، ويشدّ على بطنه حجراً!...

يقينا أن رجلا يتحلى بشجاعة علي ومنزلة علي الإجتماعية يصنع مثل هذا الصنيع ليتصدّق لهو إنسان فوق مستوى الإنسان، **ويحقّ لنا منصفين أن نلقّبه قِدّيس الإسلام العظيم وإمامه الأعظم!**

ولولا شعور النّاس بانسانيته، ما قال عمر: « لقد أُوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال، لأن تكون لي واحدة منها أحب إليّ من حمر النعم: -

أ - زوّجه رسول الله (ص) ابنته وولدت له.

ب - وسد الأبواب إلاّ بابه في المسجد.

ج - وأعطاه الراية يوم خيبر؟..

ومن إنسانيته عفوه عن مبارزه يوم قطع رجل مبارزه ذاك.

فقد رُوي أنّ طلحة طلب المبارزة مراراً، فلم يجبه أحد، فقال: « يا أصحاب محمّد زعمتم أنّ قتلاكم في الجنة وقتلانا إلى النار، فهل أحد منكم يعبطني بسيفه النار، أو اعجله بسيفي إلى الجنة، كذبتم واللاّت والعزّى لو تعلمون ذلك لخرج إليّ

بعضكم، فقام إليه عليّ بن أبي طالب فقال:

«والّذي نفسي بيده لا افارقك حتى أُعجلك بسيفي إلى النار أو تعجلني بسيفك إلى الجنّة فضربه علي فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته فقال: «انشدك الله والرّحم يا ابن العم فتركه، فكبّر رسول الله (ص)».

وقيل لعلي: «ما منعك أن تجهز عليه؟» قال: «إنّ ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته فاستحييت منه!.»

أجل إنّه الترفع والحياء وهما بعض صفات الإنسان الحق!

أو حيا إلى علي بما يصنعه الإنسان الّذي ينتصر على نفسه ساعة الغضب!....

زهده وتواضعه

كما يمتحن الذهب بالنّار، يمتحن الرّجل بالسلطة والمال لأنّ المال يفسد الرجال، والسلطة تغيّر طباعهم. لكنّ السلطة ما زادت الإمام «عليا» غير إنسانية ونبل وتواضع وزهد!

فالرّجل الّذي كانت الدنيا في يده عدا الشام لم يخلّف عند موته سوى ثمنمائة درهم!... لم يكن اختزنها إنّما أعدّها لخادم يشتريه لأهله، فمات قبل شرائه!

وأمواله الّتي وصلت إلى يده لم ينفقها في مأكل ولا ملبس. ولا مركب ولا شراء عبيد، ولا إماء، ولا بناء دار، ولا اقتناء عقار!...

مات ولم يضع لبنة على لبنة، ولا تنعّم بشيء من لذّات الدنيا، كان يلبس الخشن ويأكل الجشب، ويعمل في أرضه، فيستنبط منها العيون ثم يقفها في سبيل الله ويصرف ما يصل إلى يده من مال في الفقراء والمساكين في سبيل الله وهو مع ذلك يريد من عماله في الأمصار أن يكونوا مثله، أو متشبّهين به على الأقل.

أجل، ومع أنه كان قادراً على التنعّم بملاذّ الدّنيا، فهو يتركه زهداً وتعفّفاً، ومواساة للفقراء، وكان يقول: «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا القمح ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا عهد له بالقرص، ولا طمع له بالشبع!

لست اريد أن أذهب إلى الروايات المختلفة الّتي تنتهي كلّها إلى معنىً واحد، وحقيقة واحدة وهي أنّ زهد الإمام كان مثالاً فذاً.

أليس هو القائل: «والله لإن أبيت على حسك السَّعدان مسهَّدا، أو أُجرَّ في الأغلال مصفداً، أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً، لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حؤولها، والله لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت. ما لعلي ونعيم يفنى ولذة لا تبقى؟!...»

فهذه المحاسبة الدقيقة للنّفس تدلّ على رجل وزن الدنيا بميزان أسمى من موازين البشر واعتباراتهم فأعرض عنها إعراض رجل رأى نفسه أسمى من الحياة ومن توافه الوجود الّتي يتهارش عليها الناس، سما فوق دنياه وهو قادر على أن يمدّ يده لما يشتهي وهذا هو الزهد في أعلى مراتبه وأشرف منازله!.

انظر إلى ما يشهد به «أبو النوار» بياع الكرابيس، إذ يقول: «أتاني عليّ بن أبي طالب، ومعه غلام له فاشترى مني قميص كرابيس، فقال لغلامه: «اختر أيّهما شئت، فأخذ أحدهما، وأخذ علي الآخر فلبسه» ثم مد يده فقال: «إقطع الذي يفضل من قدر يدي، فقطعته، وكفَّه ولبسه وذهب!».

ماذا أقول أو ماذا يقول البشر كافة، والحاكمون جميعاً، في رجل يعرض سيفه للبيع يشتري له إزاراً؟

أجل يعرض سيفه للبيع والدنيا كلّها بيده، إلاّ ما كان من الشام،وتهزّ الأريحية من يرى تلك العفّة النفسيّة ويسمع كلمات أبي الحسن كأنّها آتية من وراء الغيب: «من يشتري منّي سيفي هذا؟ فلو كان عندي ثمن إزار ما بعته!» درس بليغ وعظة أبلغ للّذين تكون السلطة سبباً في ثرائهم، وفي احتجارهم للأموال.

وتلامس الكلمات المخلصة قلب أحد الّذين يسمعون نداء التسامي والتجرّد فيقول: «نحن نسلفك ثمن الإزار!».

الرجل العظيم، والإمام الأعظم، قِدّيس الإسلام وأسده، كان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وبليف اخرى ونعلاه من ليف، وكان يلبس الكرابيس حتى قال مرة: «والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحيت من راقعها، ولقد قال لي قائل: «ألا تنبذها عنك؟!».

فقلت : «اعزب عنّي، فعند الصباح يحمد القوم السُّرى!».

وهل وراء زهد الّذي يرى الدنيا أهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ويرى الإمرة نفسها لا تساوي نعلاً قيمتها ثلاثة دراهم إلاّ أن يقيم حقّاً، أو يدفع باطلاً، كما ذكر لابن عبّاس، وهو سائر إلى البصرة!

أمّا تواضعه فحسبك منه مفتاحاً لتلك الشخصية العظمى أن يدعو غلامه لاختيار أحد القميصين، فيأخذ هو الآخر!

أن يعمل بيده الأعمال الّتي يقوم بها الخدم ونحوهم. في محيط احتقر فيه العمل!

سخاؤه وجوده

الّذي يدقّق في أحوال الزاهدين، يرى أن زهدهم في أغلب الأحيان يرتد إلى نفوسهم من غير أن يشعروا، فيغترّوا على الناس، وهم مخلصون كأنّما هم يعتقدون أنّ ما تساموا هم عنه، يجب أن يتسامى عنه جميع النّاس فيتوهّم النّاس أنّ الزاهدين بخلاء، فإذا صدق هذا القياس على بعض النّاس، فإنّه لا يمكن أن يصدق على أبي الحسن!

تكفي شهادة أشدّ خصومه لدداً، وأعنف أعدائه زرقة «معاوية بن أبي سفيان» الّذي قال: «لو ملك - أي الإمام بيتا من تبر وبيتا من تبن لأنفق تبره قبل تبنه!» والفضل ما شهدت به الأعداء!...

فمن هنا ترى أنه جمع في نفسه محاسبة النّفس بأدقّ ما تكون المحاسبة لكنّه كان يريد أن يرى النّاس في رفاهيته فلم يكن يبخل بشيء، من مال - إلى درجة أنّه كان يوزع كل ما في بيت المال.

والكريم السخي إنسان غيري ينسى نفسه ويجود بها. فقد كان الإمام يؤثر على نفسه ويجود بها! وحسبنا دليلاً على ذلك إيثاره النبيّ (ص) عن نفسه ونومه في فراشه.

يجود بالنّفس إن شحّ الضنين بها والجود بالنّفس أقصى غاية الجود

وحسبه شهادة النبيّ له بالسماحة والجود، قول النبيّ: «**أقدم امّتي سلماً، وأكثرهم علماً، وأصحّهم ديناً وافضلهم يقيناً، وأكملهم علماً وأسمحهم كفاً وأشجعهم قلباً علي (ع) وهو الإمام على امتي.**».

عدله

ألمنا ببعض مناقب الإمام، وها نحن اولاء نتعرّض إلى عدله، قال ابن الأثير في اسد الغابة: «إنّ زهده وعدله، لايمكن استقصاؤهما!».

يروى أنّه جاءه من أصفهان رغيف، فقسمه سبعة أجزاء كما قسم المال وجعل على كل جزء جزءً!

من عدله أنّه ساوى بين الناس في العطاء، وأخذ كواحد منهم.

ومن عدله أنّه ناقش خازنه على زقّ عسل في بيت المال استقرض منه ولده شيئاً يسيراً، ولم يحاب أخاه عقيلاً في شيء يزيده به عن عطائه!

فالإمام علي لا يعرف المحاباة لقوي، ولا يقبل حيفاً لضعيف، وهو الّذي انتزع القطائع التي وزّعت قبل خلافته على الرؤساء والمقرّبين، وأعادها إلى بيت المال، ليصير توزيعها بالعدل والمساواة على مستحقّيها. ومن أقواله في هذا الشأن:

«والله لو وجدته قد تزوّج به النساء، وملك به الإماء لرددته، فإنّ في العدل سعة. ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق!

ومن عدله أنّه لم يتسامح في الحقّ العام.

ذكر الطبري عن بعض الأسانيد قال: «رأيت عليّاً عليه السلام خارجاً من همدان، فرأى فئتين يقتتلان ففرق بينهما، ثم مضى فسمع صوتاً: «يا غوثاباالله» فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله، وهو يقول: «أتاك الغوث!» فإذا رجل يلازم رجلاً، فقال: «يا أمير المؤمنين.. بعت هذا ثوباً بتسعة دراهم وشرطت عليه الاّ يعطيني مغموزاً ولا مقطوعاً، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لي، فأبى فلزمته

فلطمني » فقال: « إبدله » ثم قال: « بينتك على اللّطمة ». قال فأتاه بالبيّنة، قال « دونك فاقتص ». قال: « إني قد عفوت يا أمير المؤمنين ». قال: « إنّما أردت أن أحتاط في حقك.. » ثم ضرب الرجل تسع درات، وقال: « هذا حقّ السلطان ».

فالإمام علي لا يفرط في الحقّ الخاص، ولا في الحقّ العام!

قد ظلمه قوم بقولهم إنه فرّط في دم عثمان. والحقّ أنّهم كانوا ظالمين أو متحاملين، فقد تحدّث الإمام مرة في أمر القود من قتلة عثمان، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنّهم: « كلّهم قتلة عثمان ». فمن شاء القود، فليأخذه منهم أجمعين.

فكان الإمام يقول لمن طلبوا منه إقامة الحدود: « إنّي لست أجهل ما تعلمون، ولكنّي كيف أصنع بقوم يملكوننا، ولا نملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا. فهل ترون موضعا لقدرة على شيء ممّا تريدون؟... »

ومن قوله (ع): « إنّ هذا الأمر أمر جاهلية، وإنّ لهؤلاء القوم مادة، وإنّ النّاس من هذا الأمر الّذي يطلبون على امور:

أ - فرقة ترى ما ترون.

ب - فرقة ترى مالا ترون.

ج - وفرقة لا ترى هذا، ولا هذا! حتى تهدأ النّاس وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق، فاهدأوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا!..

فأنت ترى أنّ الإمام مع عدله كان حكيما، وأنّ الّذين اتّهموه بالتّفريط قوم أرادوا التحامل والوقيعة ليس غير.

ولعلّ أعظم دليل على أنّه قسطاس في العدل موقفه من بنته حين استعارت عقداً من بيت المال.

ومن كتاب له إلى أحد عمّاله وقد تصرّف بشيء من مال المسلمين: « والله لو أنّ الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كان لهما عندي هوادة ولا ظفرا منّي بارادة حتى آخذ الحق منهما ».

ومن عدله الّذي جعله يرى الدين شكيمة لمطامع الدنيا، فيترفّع عن كلّ مغنم لا ينسجم والخلق الكريم، وقد صحّ عنه أنّه قال: «لولا الدّين والتّقى لكنت أدهى العرب».

وصح عنه: «قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة، ودونها حاجز من تقوى الله، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين».

أجل إنّه طود من الأخلاق السامية، لا يميل به عن العدل مطمع مهما جلّ وعظم!.

فمن عدله أنّه لمّا كان والياً على اليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا إبل الصدقة، وقال لهم: «إنّما لكم منها سهم كما للمسلمين. ثم لام العامل الذي أذن لهم أن يركبوها في غيبته، وهو منصرف إلى الحجّ. وشاعت هذه القصة لأنّ اناسا شكوه إلى الرسول (ص) فأنكر شكواهم منه، وقال «لقد علمت أنّه جيش في سبيل الله!...»

قضايا تدلّ على حكمته وعدله

لا نريد أن نذكر أحكامه العجيبة الّتي تدلّ على عبقريّة فذّة، وقد ذكرناها ونحن نذكر لمحات من إنسانيته.

لكنّا نذكر قضايا خصّه الله فيهابالحكمة والعدل، وفصل الخطاب، وقد أُلفت في ذلك الكتب والرسائل.

أ - أتى عليّاً وهو باليمن ثلاثة يختصمون في ولد، كلّهم يزعم أنه وقع على أُمّه في طهر واحد في الجاهلية، فأقرع بينهم، وألزم من خرجت له القرعة ثلثي الدّية لصاحبيه فبلغ ذلك النبي (ص) فقال: «الحمد لله الّذي جعل فينا أهل البيت من يقضي على سنن داود».

ب - رفع إليه وهو باليمن خبر زبية حفرت للأسد، فوقع فيها، فوقف على شفير الزبية رجل، فزلّت قدمه، فتعلّق بآخر وتعلّق الآخر بثالث، وتعلّق الثالث برابع، فافترسهم الأسد.

فقضى: - أن الأوّل فريسة الأسد، وعلى أهله ثلث الديّة للثاني وعلى أهل الثاني ثلثا الديّة للثالث، وعلى أهل الثالث الديّة كاملة للرابع. فبلغ ذلك رسول الله (ص)فقال: «لقد قضى أبو الحسن فيهم بقضاء الله عزّ وجلّ فوق عرشه».

ج - ورفع إليه خبر جارية حملت جارية على عاتقها عبثاً ولعباً، فقرصت اخرى الحاملة، فقمصت لقرصتها، فوقعت الراكبة، فاندقّت عنقها، وهلكت فقضى على القارصة بثلث الديّة، وعلى القارصة بثلثها، وأسقط الثلث الباقي لركوب الواقعة عبثا القامصة، وبلغ ذلك رسول الله «ص» فأمضاه وشهد له بالصّواب.

د - وأبطل الإمام علي «ع» دم رجل نفحته فرس لرجل من اليمن فقتلته، لمّا أقام صاحب الفرس البيّنة، أنّ الفرس انفلت من داره قهراً، ولم يفلته صاحبه.

هـ - واختصم رجلان للنبي «ص» في بقرة قتلت حماراً، فسأل عنها أبا بكر وعمر، فقالا بهيمة قتلت بهيمة، لا شيء على ربّها. وقال علي بن أبي طالب: «إن كانت البقرة دخلت على الحمار في منامه فعلى ربّها قيمة الحمار لصاحبه، وإن كان الحمار دخل على البقرة في منامها فقتلته فلا غرم على صاحبها».

فقال رسول الله «ص» «لقد قضى بينكما علي، بقضاء الله، ثم قال الحمد لله الذي جعل فينا أهل البيت من يقضي على سنن داود في القضاء وفي رواية، الحمد لله الّذي جعل منّا من يقضي بقضاء النبيين.

ومن الامور التي تتفرّع عن القضاء، وتدلّ على العبقريّة والبداهة:

أ - المسألة المنبرية، فقد سُئِلَ الإمام وهو على المنبر، عن بنتين وأبوين وزوجة فقال بغير روية: «ثمنها صار تسعا!»

وهذه المسألة لو صحت لكانت مبنية على العول، وهو إدخال النقص عند ضيق المال، عن السام المفروضة على جميع الورثة بنسبة سهامهم فهنا للزوجة الثُّمن، وللأبوين الثلث، وللبنتين الثلثان، فضاق المال عن السِّهام، لأنّ الثلث والثلثين تمّ بهما المال، فمن أين يؤْخذ الثمن؟

فمن نفى العول قال ا ن النقص يدخل على البنتين. والفريضة من أربـــــعة وعشرين للزوجة ثمنها ثلاثة، وللابوين ثلثها ثمانية، والباقي ثلاثة عشر للبنتين، نقص من سهمهما ثلاثة».

ومن أثبت العول، قال: «يدخل النقص على الجميع، فيزاد على الأربعة والعشرين ثلاثة تصير سبعة وعشرين. للزّوجة منها ثلاثة، وللأبوين ثمانية، وللبنتين ستة عشر، والثلاثة هي تُسْع السبعة والعشرين. فهذا معنى قوله صار ثمنها تسعا!.

قال ابن أبي الحديد: «هذه المسألة لو فكّر الفرضيّ فيها طويلا لاستحسن منه بعد طول النّظر هذا الجواب. فما ظنك بمن قاله بديهة واقتضبه ارتجالاً.

ب - المسألة الدينارية: - وهي أنّ امرأة جاءت إليه وقد خرج من داره ليركب، فترك رجله في الركاب، فقالت: « يا أمير المؤمنين، إنّ أخي قد مات وخلف ستمائة دينار، وقد دفعوا لي منها ديناراً واحداً، وأسألك إنصافي، وإيصال حقّي إليّ » فقال لها: « خلَف أخوك بنتين ولهما الثّلثان أربعمائة، وخلَف أُمّاً لها السُّدس مائة، وخلّف زوجة لها الثمن خمسة وسبعون وخلَف معك اثني عشر أخاً لكل أخ ديناران، ولك دينار ». قالت نعم. فلذلك سمّيت هذه المسألة بالدّينارية.

وهذه المسألة لو صحّت لكانت مبنيّة على التعصيب، كما أنّ السابقة مبنية على العول. والتعصيب هو أخذ العصبة ما زاد من السهام المفروضة في الكتاب العزيز، والثابت عن أيمة أهل البيت، بطلان التعصيب، بل يرد الزائد على ذوي السّهام بنسبة سهامهم. ويجوز أن يكون عليه السلام قال للمرأة انّ لها ذلك على المذهب الذي كان معروفا في ذلك العصر، وإن كان لا يقول به!...

ج - رُفعت إلى أمير المؤمنين قضية خلاصتها، أنّ رجلين جلسا يتغدّيان مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلمّا وضعا الغداء بين أيديهما، مرّ بهما رجل فسلّم، فقالا اجلس للغداء، فجلس وأكل معهما، واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم. وقال خذا هذا عوضاً عمّا أكلت لكما، ونلته من طعامكما، فتنازعا، وقال صاحب خمسة الأرغفة، لي خمسة دراهم، ولك ثلاثة. فقال صاحب ثلاثة الأرغفة، لا أرضى، إلاّ أن تكون الدراهم بيننا نصفين، وترافعا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقصّا عليه قصّتهما، فقال لصاحب الأرغفة الثلاثة: « قد عرض عليك صاحبك ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك، فارض بالثلاثة ». فقال لا والله لا رضيت منه إلاّ بمرّ الحقّ، فقال علي:

« ليس لك في مرّ الحق إلاّ درهم واحد. وله سبعة» فقال الرجل: « سبحان الله يا أمير المؤمنين! هو يعرض علي ثلاثة فلم أرض، وأشرت بأخذها فلم أرض، وتقول لي الآن أنّه لا يجب لي في مرّ الحقّ إلاّ درهم واحد ».

فقال له علي: « عرض عليك صاحبك أن تأخذ الثلاثة صلحا، فقلت: « لم أرض إلاّ بمرّ الحقّ ». ولا يجب لك بمرّ الحقّ إلاّ واحد، فقال الرجل: « فعرفني بالوجه في مرّ الحقّ حتى أقبله، فقال علي: « أليس للثمانية أرغفة أربعة وعشرون

ثلثاً؟ أكلتموها، وأنتم ثلاثة أنفس. ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً، ولا الأقل فتحملون في أكلكم على السواء!».

قال: «بلي».

قال: «فأكلت أنت ثمانية، أثلاث، وإنّما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثا أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة وأكل لك واحداً من تسعة فلك واحد بواحدك، وله سبعة بسبعه».

فقال الرجل: «رضيت الآن».

وقد روى هذه القصة غير واحد إلاّ أن أحد الرواة قال إن أمير المؤمنين قال لهما: «هذا الأمر فيه دناءة، والخصومة غير جميلة فيه، والصلح أحسن! فقال صاحب الثلاثة لست أرضى إلاّ بمرّ الحقّ!

فهذه القضايا تدل بداهة على ما وهب الله للإمام من صفاء العقل، وذكاء الرأي، وصفاء الحكمة، وخلوص النية، ونقاء الضمير، بحيث لا تلتاث عليه قضية. ممّا جعل عمر بن الخطاب يقول: «لولا علي، لهلك عمر!».

وحبّ الإمام للعدل، وتقديسه إيّاه، جعله يقف أمام قاضي الحكومة مدّعيا بدرع له على خصم يهودي، ولّما لم تتوافر له الأدلة خسر الدعوى فلم يتبرّم، ولم يتذمّر، ولولا إقرار اليهودي بصحة ادعاء الإمام، ما تراجع القاضي عن حكمه.

ولتقديسه العدالة، باشر تنفيذ الحدّ بنفسه على والي الكوفة - الوليد بن عقبة بن أبي معيط - يوم ثبت أنّه يتعاطى الخمر!

سداد الرأي وصدق الفراسة عند الإمام علي

إنّ عبقريّة الرّجل تظهر في سداد رأيه وحسن تدبيره، وصدق فراسته وقد كان الإمام على الذروة من هذه الامور.

ولعلّ من خير ما يشير إلى سداد رأيه وحسن تدبيره أنّه هو الّذي أشار على عمر بن الخطّاب بالخطّة المحكمة يوم انتهى إلى المسلمين بالكوفة أنّ جموعاً كثيرة تحتشد في فارس لغزوهم. فأنهوا الخبر إلى عمر، فاضطرب لذلك وفزع فزعاً شديداً فاستشار المسلمين فيما يصنع: -

أ - فأشار عليه طلحة بالمسير بنفسه.

ب - وقال عثمان: «أرى أن تشخص أهل الشام من شامهم، وأهل اليمن من يمنهم، وتسير أنت في أهل هذين الحرمين، وأهل المصرين الكوفة والبصرة فتلتقي جميع المشركين بجميع المؤمنين».

فقال عليّ: «إنّك إن أشخصت أهل الشّام من شامهم، سارت الرّوم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم وإن أشخصت أهل هذين الحرمين انتقضت عليك العرب من أطرافها، فأمّا ذكرك كثرة العجم، ورهبتك من جموعهم فإنّا لم نكن نقاتل على عهد رسول الله «ص» بالكثرة وإنّما كنّا نقاتل بالبصيرة، وإنّ الأعاجم إذا نظروا إليك قالوا: - هذا رجل العرب فإن قطعتموه فقد قطعتم العرب، وكان أشدّ لكلبهم، ولكنّي أرى أن تقرّ هؤلاء في أمصارهم، وتكتب إلى أهل البصرة، فليتفرقوا على ثلاث فرق:

١ - فلتقم فرقة منهم على ذراريهم.

٢ - ولتقم فرقة منهم على أهل عهدهم لئلا ينتقضوا.

٣ - ولتسر فرقة منهم إلى إخوانهم مدداً لهم.»

فقال عمر: «أجل هذا الرأي» وقد كنت احبّ ان أُتابع عليه».

وجعل يكرر قول علي وينسّقه إعجابا به واختياراً له.

وهناك دليل آخر على سداد رأيه وبعد غوره، وهو نقل عاصمة الخلافة من الجزيرة إلى العراق، إنّ هذا العمل يدل على عبقرية البطل المجدّد الّذي لا يرهب التّجديد ولا يخاف الإنبعاث في حياة الامة. وقد كان صنيعه تجديداً كليّاً يكاد يكون ثورة على جفاف الجزيرة العربية وشحّها المخيف وفقرها المرهب، وخرابها البائس، إلى رفاهية العراق وعظمة موارده، وسعة ثروته وجلال عمارته.

كان صنيع الامام علي يدلّ على عبقرية فذّة، فهو يسبق الزمن ولا يجعل الزمن يسوقه إلى التطوّر الحتمي.

أفاد من ذلك أن جعل للعراق شخصيّة متميّزة، وجعل للإسلام سلطة رهيبة لأنّه أقامه في مركز إنبراطوريّة عظيمة كان أهلها ينظرون إلى العرب على أنّهم عنصر ذليل متخلّف عن ركب الحضارة، نازل عن مرتبة الإنسانية فلو لم يكن للإمام عليّ من مزيّة غير هذه المزيّة لحقّ للإسلام أن يقدّسوه ما تعاقب الجديدان. وحقّ لأهل العراق خاصة أن ينحنوا إجلالاً لهذا الألمعي الأيهم!.. الّذي أبرز بلادهم عاصمة لدولة سحقت أعظم انبراطوريّتين عرفهما ذلك الزمن.

فمن سداد رأي الإمام عليّ ومن عظمة شخصيّته اكتسب العراق تلك الشخصيّة المتميّزة وانصهرت عناصره المتباينة الأجناس والمعتقدات والمشارب في إطار من العظمة، بينما كان الإستيلاء على غير العراق واتخاذه عاصمة لغير الإمام تدميراً لشخصيّته الأصليّة ووأداً لمميّزاته الخاصّة!...

ومن سداد رأيه أنّه كان يرى أنّ عمارة الأرض والمملكة متقدّمة على جميع الخراج لذلك رأيناه يطلب التخفيف عن المتضرّرين، ولعل أبلغ دليل على ذلك هو عهده للأشتر الّذي تقدّمت الإشارة إليه.

أمّا سداد رأيه في امور الحرب. فيدلّ على أنّه خلق ليكون قائداً من أعظم القادة، فلنر رأيه في ساحة الحرب: «فقدّموا الدارع، وأخّروا الحاسر، وعضّوا على الأضراس، فإنّه أنبى للسيوف عن الهام، والتووا في أطراف الرماح، فإنّه أمور

للأسنّة، وغضّوا الأبصار، فإنّه أربط للجأش. وأسكن للقلوب وأميتوا الأصوات، فإنّه أطرد للفشل ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوها ولا تجعلوها إلاّ في أيدي شجعانكم».

ومما يدل على سداد رأيه في سياسة الحرب ما نقتطفه من وصية وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو: «فإذا نزلتم بعدو، أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قبيل الاشراف، وسفاح الجبال، أو أثناء النهار، كيما يكون لكم ردء، ودونكم مردّاً، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد، أو اثنين واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال، ومناكب الهضاب، لئلاّ يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن. واعلموا أنّ مقدمة القوم عيونهم. وعيون المقدمة طلائعهم، وإيّاكم والتفرّق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعا، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة، ولا تذوقوا النّوم إلاّ غرارا او مضمضة!

أجل لقد كان في سداد رأيه طرازاً خاصاً، وكان مجدّداً إلى أبعد حدود التجديد، ولبطولته لم يكن يرهب الجهر برأيه، فلم يكن يداجي ولا يحابي فقد واجه الجماهير بقوله: **«إنّي والله لعالم بما يصلحكم ويقوّم أودكم، ولكنّي لا أرى إصلاحكم بافساد نفسي»** ومن كلامه: **«إنّ في العدل لَسعَة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق!..»**

ومن سداد رأيه أنَّه هو الّذي أشار على عمر باتخاذ الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامي. وهو الّذي أشار عليه بترك حلي الكعبة، لما أراد أخذه. وتجهيز جيوش المسلمين به اعتقادا بأنّ ذلك أعظم أجراً من تركه على الكعبة فوضّح له أنّ النصوص الواردة في القرآن تقسّم الأموال إلى أربعة أقسام:

أ - قسم بين الورثة في الفرائض.
ب - قسم الفيء ويقسمه على مستحقيه.
ج - وقد وضعه الله حيث وضعه.
د - والصدقات ومنها حلي الكعبة.

فلما سمع عمر قول الإمام عليّ قال: «لولاك لافتضحنا!» وترك الحلي بحاله.

أمّا فراسته، فقد دلته على امور كثيرة، كانت تقع كما يتصورها، من ذلك فراسته في طلحة والزبير بعد أن بايعاه. وفراسته في قريش عامة فإنّه علم بفراسته وسداد رأيه أنّ قريش لن تنصره، ولن تتّفق كلمتها عليه. ودلّته فراسته على فشل التحكيم، ولكنّ أصحابه أرغموه على قبوله وقبول الحكم نفسه.

عصر الإمام

نستطيع أن نقسم عصر الإمام إلى أربع فترات: -

أ - فترة الجاهليّة - في نشأته.

ب - فترة طفولة الإسلام - في شبابه.

ج - فترة الخلفاء الثلاثة: - أبي بكر، وعمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان.

د - وفترة خلافته.

والجاهلية، كما يصوّرها الإمام مخاطباً العرب:

«إنّهم كانوا في شرّ دار، منيخون بين حجارة خشن، وحيات صمّ، يشربون الماء الكدر، ويأكلون الجشب، ويسفكون دمائهم، ويقطعون أرحامهم. الأصنام فيهم منصوبة، والآثام بهم معصوبة.»

وقال في كلام آخر: «والناس في فتن انجذم فيها حبل الدّين، وتزعزعت سواري اليقين، واختلف النجر وتشتّت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر فالهدى خامل، والعمى شامل، عصي الرحمٰن، ونصر الشيطان، وخذل الإيمان فانهارت دعائمه، وتنكّرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شوكته أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، في فتن داستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها، وقامت على سنابكها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في شر دار، وشر جيران، نومهم سهود، وكحلهم دموع بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرّم!.»

فهذا التصوير البارع لوضع بائس اقتصاديّاً، واجتماعيّاً، وروحيّاً وسياسيّاً. لم يستطع أن يؤثّر في تلك الشخصيّة الفذّة، بل على النقيض من ذلك أكسب

الإمام حصانة ضد تلك الموبقات التي عرفت بها الجاهلية، وتسامى فوق محيطه، ولم يؤد الضريبة للعصر الّذي صوره لنا بهذه العبارات تصويراً بارعاً تعجز عنه ريشة الرسّام الماهر!

أما فترة طفولة الإسلام، فقد شهد فيها صراع الدين الجديد لعالم من الأصنام كان الإمام أسداً في الصراع، وقِدّيساً في العبادة، حتى كأنّه خلق للعبادة فاسمع منه ذلك البيان الذي يقطر بلاغة: «ألا وانّ الخطايا خيل شمس، حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النار، ألا وإنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها واعطوا أزمتها. فأوردتهم الجنّة».

أمّا دفاعه عن الإسلام فقد مرّ بنا ما صنع في نصرة الإسلام في المواقع كلّها. فزرع له دفاعه عن الإسلام وقتاله في سبيل زرعه في النفوس بذراً له في القلوب ذحولاً وترات لهم لم تزدها الأيام إلاّ اتّقاداً في القلوب والتهاباً في الضمائر. أجل ناصر الإسلام والنبيّ حتى وهو طفل حتى لقب بالقضيم.

ولقد قال له النبيّ: تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله.

روى النسائي في الخصائص بسنده عن أبي سعيد الخدري: «كنّا جلوسا ننتظر رسول الله «ص» فخرج إلينا وقد انقطع شسع نعله، فرمى به إلى علي فقال: «إنّ منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» قال أبو بكر: «أنا؟» قال: «لا!» قال عمر: «أنا؟» قال: «لا! ولكن خاصف النّعل!».

أمّا الفترة التي عاصر بها الخلفاء الثلاثة فكانت فترة ظهرت فيها غيريّة الإمام وتساميه فوق ذاته البشريّة لمصلحة الإسلام!

أجل فأيّ مجاهدة للنّفس تعرّض لها الإمام وهو يعتقد أنّ الخلافة حقّ من حقوقه للأسباب التالية:

١ - انّه أحبّ النّاس إلى الرسول، وحسبك برجل يأتمنه النبيّ على أعزّ شيء عنده أعني أحبّ بناته إليه «فاطمة الزهراء».

٢ - قول النبيّ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه!» وقوله: «علي مني وأنا منه».

٣ - حديث جمع النبي عشيرته إذ قال: «إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا».

٤ - النص على إمامته يوم الغدير حين رجع من حجّة الوداع ومعه ما يزيد على مائة ألف فخطبهم وقال في خطبته، وقد رفعه للناس، وأخذ بضبعيه فرفعهما حتى بان للناس إبطاهما، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟!

قالوا: «بلى!».

قال: «من كنت مولاه، فعلي مولاه! اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، وأعن من أعانه، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار!».

ثم أفرده بخيمته وأمر النّاس بمبايعته بإمرة المؤمنين حتى النساء ومنهم نساؤه!

٥ - نصره النّبي في صغره.

٦ - فداؤه النبيّ بنفسه في صغره.

٧ - نضاله في سبيل الإسلام.

كل هذه الامور كانت تؤكد له أنّ المسلمين لن يتجاهلوا حقّه في الخلافة.

لكنه لّما رأى أن إصراره على المطالبة بحقّه يضعضع أركان الإسلام الفتيّ «فوالله ما زلت مدفوعا عن حقّي، مستأثراً عَلَيَّ منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلّم حتى يوم الناس هذا».

ففي هذا الموقف الّذي ليس في الحياة ما هو أدقّ منه وأخطر، يتسامى الإمام فوق ذاته البشرية، وأبو سفيان يعرض عليه مناصرته له لتنحية أبي بكر عن الخلافة قائلاً: «فوالله لئن شئت لأملؤها خيلاً ورجلاً».

فردّ عليه الإمام: «إنّك والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة، وإنّك والله طالما بغيت للإسلام شرّاً، لا حاجة لنا في نصيحتك».

ثم يقول الإمام: «حتّى كنت أنا الّذي أبيت، لقرب عهد الناس بالكفر، مخافة الفرقة بين المسلمين!».

أجل رجل يقول هذا بعد أن يسمع من فاطمة الزهراء بعد أن رفضت مطالبتها بـ «فدك» إنّه في ذروة النزاهة النفسية.

لقد عادت «الزهراء» «ع» من عند الخليفة كسيرة الخاطر فلمّا استقرّت بها الدار قالت: «يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن أبي قحافة ابتزني نحيلة أبي، وبلغة ابنيّ، لقد أجهد في خصامي وألفيته الألد في كلامي، حتى حبستني قيلة نصرها،والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع، ولا مانع، ولا ناصر، ولا شافع، خرجت كاظمة وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت جدك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ما كففت قائلاً ولا أغنيت طائلاً ولا خيار لي، ليتني مت قبل منيتي، ودون ذلتي. عذيري الله منك عادياً، وفيك حامياً، ويلاي في كل شارق، ويلاي في كل غارب مات العمد، ووهت العضد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربّي. اللهمّ إنّك أشدّ قوة وحولا، وأحدّ بأساً وتنكيلاً!».

موقفان لا يستطيع أن ينتصر الإنسان على نفسه فيهما إلاّ إذا كان من طراز الإمام علي كرّم الله وجهه! القائل: **«وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً، ما لم يكن شاكّاً في دينه!...»**.

أجل هذا هو الرجل العظيم الّذي كذّبه قوم، وألّهه آخرون،وأحبه قوم لما عرفوا من مزاياه الغرّ.

وعلي كلّ هذا فقد كان أبو الحسن مخلصاً، فما انحرف عن النصح، ولا حاد عن مناصرة الحقّ، ولا مال عن نصح الخلفاء بسريرة نقيّة، وطويّة لا تعرف الغشّ. ونحن نعتقد أنّه لو لم يفسد المفسدون مفعول نصائحه ويعطلوا إرشاداته لعثمان بن عفان لما وقعت الكارثة الّتي ظلت دعائم الاسلام ترتجف من هولها، لأنّها أوّل جرأة سافرة على مقام الخلافة، بصرف النظر عن اغتيال عمر بن الخطّاب!

ويقول المؤرخون الثقات إنّ أقارب عثمان تخلوا عنه وقت الشدّة، وهربوا إلى الشام، لكنّ عليّاً وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعاً مشهوداً، بحيث لم يستطع المتآمرون أن يتغلّبوا عليهم إلاّ بعد جهد عظيم.

أما خلافته فقد كان المتوقّع كما يقول سيديو SEDILLOT المؤرّخ الفرنسي

المشهور،« إنّ الكلّ سيطأطىء هامته أمام هذه العظمة المتلألئة النقيّة غير أنه قدّر غير ذلك ».

وسرّ ذلك كما نرى أنّ الشّخصيّة العربيّة كانت قد تمزّقت بين أخلاق الجاهليّة التي صوّرها الإمام، وبين مطالب الإسلام، بين الأحقاد القبلية الّتي كان الإسلام قد وأدها شيئا من الوأد ولم يجهز عليها، لأنّه ليس من المعقول طبيعيّاً، أن تنقل امّة من حال إلى حال في مثل هذه الفترة الزمنيّة الوجيزة، مع انعدام الوسائل التي لدينا في هذا العصر! فهذه الاسر الّتي رأت في الإسلام ذلاً لها لم تنس أحقادها، وتلك الاسر الّتي وترها الإمام في سبيل نشر الدعوة، ما زالت تحنّ إلى اليوم المواتي والفرصة السانحة لتأخذ بثأرها.

عقلية الإمام الدينية الّتي لا تراوغ ولا تداهن، وضميره القضـــائي الّذي لا يحابي حتّى أعز الناس، وأقرب المقرّبين: - البنت، والإبن، والأخ الشقيق!..

هذه كلها أمســت غريبة على الطبيعة العربية التي قفزت عن الحكومة الدينية المثالية إلى حكومة شبه دنيويّة تقتني الضياع والخيل، وتهب القطائع للمقرّبين، الأمر الّذي أثار ضمير أبي ذرّ الغفاري فجاهر بمهاجمة الوضع الجديد الّذي رأى فيه انحرافاً عن نقاء الإسلام.

وضاق أتباع الخليفة بأبي ذرّ ذرعاً، ولعلهم هم الّذين أشاروا على عثمان بنفيه وقد فعل. ولّما نفي أبو ذر إلى الربذة، أمر عثمان أن لا يشيّعه أحد من النّاس، فبلغ علي بن أبي طالب « ع » فبكى وقال أهكذا يصنع بصاحب رسول الله؟ إنّا لله وإنّا إليه راجعون! ثم نهض ومعه الحسن والحسين وعبد الله والفضل وقثم وعبيد الله وبنو العباس، حتى لحقوا أبا ذر فتبعوه، فلمّا بصر بهم حنّ إليهم وبكى، وقال: « بأبي وجوها إذا رأيتها ذكرت بها رسول الله « ص » وشملتني البركة برؤيتها » ثم رفع يديه إلى السماء وقال: « اللّهم إنّي احبّهم ولو قطّعت إربا إربا! في محبتهم ما زلت عنها ابتغاء وجهك، والدّار الآخرة، فارجعوا رحمكم الله، والله أسأل ان يخلفني فيكم أحسن الخلافة، فودّعه القوم، ورجعوا وهم يبكون على فراقه.

وحكى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن رواية الواقدي، أن أبا ذرّ،

دخل على عثمان بعد رجوعه من الشام. قال له عثمان في جملة كلام دار بينهما، أنت الّذي تزعم أنّا نقول: «يد الله مغلولة، وإنّ الله فقير، ونحن أغنياء!».

فقال: «لو كنتم لا تقولون هذا، لأنفقتم مال الله على عباده!...»

فَغَضِبَ عليه عثمان، وقال: «أشيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذّاب» فتكلّم علي وكان حاضراً. فقال: «اشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون: **«فإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الّذي يعدكم، إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب!»**.

قال: «فأجابه عثمان بجواب غليظ، وأجابه علي بمثله، ولم نذكر الجوابين تذمماً منهما!»

لا نريد أن نطيل الوقفة عند هذه النقطة، غير أنّنا نرى من واجبنا أن نصوّر البركان الّذي كان يتوقّع أقل هزّة لينفجر في خلافة الإمام!

وهذه الطاقة من الغزو والنهب في الجاهلية التي وجّهها الإسلام إلى العزّة والمجد والفتح، عادت ترتد إلى التدمير الداخلي أيام الفتنة الكبرى، وظلّ مدّها، ترتفع أثباجه إلى أن وجد البركان له متنفّساً: -

أ - فالامويّون الّذين يذكرون ساداتهم الّذين صرعهم الإمام مدافعا عن الإسلام، وهم يدافعون عن الأصنام. ويذكرون أنّ خلافة الإمام ستجرّدهم من أكثر الأوهام!

ب - الخوارج الّذين ما زالوا يذكرون قتلاهم في النهروان.

ج - وفئات المنافسين الشخصيّين الّذين قصروا عن شأو الإمام يؤرثون الأحقاد ويلهبون الضغائن.

د - أصحاب القطائع والمطامع الّذين كانوا يرون زهد الإمام وتجرّده وغيريّته تهديداً صامتاً ناطقاً سوف يردّهم إلى الحقّ صاغرين!

أُمور كلّها جعلت الإستقرار مستحيلاً، وكانت تنذر بالخاتمة الفاجعة الّتي انتهت بها حياة الإمام، وكانت أشنع ضربة حلّت بالإسلام، لأنّها أقصت عن الحكم وجهاً من أنبل الوجوه، وقلباً من أنقى القلوب، وضميراً من أطهر الضمائر الّتي عرفها الاسلام يوم وجوده الى اليوم، والى ان تبدّل الارض غير الارض. وتتساقط الكواكب والنجوم.

الإمام وكتابة القرآن وجمعه وترتيبه

جاء في كتاب تأريخ القرآن: « ولقد كان في دار الكتب العلويّة في النجف مصحف بالخطّ الكوفي مكتوب في آخره: - كتبه علي بن أبي طالب سنة أربعين من الهجرة، وهي السنة التي توفي فيها علي ».

وجاء في موضع آخر، أمّا عن مصحف « علي » فيعزى إليه أنّه رأى من النّاس طيرة عند وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأقسم ألاَّ يضع عن ظهره رداءه، حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن فكان أوّل مصحف جُمِع فيه القرآن ».

ويروي ابن النديم في كتابه « الفهرست » أنّ هذا المصحف كان عند أهل جعفر، ويقول: « ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقطت منه أوراق بخطّ علي بن أبي طالب، يتوارثه بنو حسن على مرّ الزّمان. وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف ».

غير أنّ كتاب الفهرست في طبعته الأوروبية وطبعته المصرية يسقط منه ما بعد هذا، فلا يورد ترتيب السور الّذي أشار إليه.

ونجد اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، وهو من رجال القرن الثالث الهجري يطالعنا بما سقط من الفهرست في الجزء الثاني من تاريخه « ١٥٢ - ١٥٤ » طبعة « ابريل » سنة ١٨٨٣ فيقول قبل أن يسوق الترتيب: « وروى بعضهم أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام جمعه - يعني القرآن - لما قُبِضَ رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم، وأتى به يحمله على جمل فقال: « هذا القرآن جمعته. وكان قد جزأه سبعة أجزاء:

أ - جزء البقرة.
ب - جزء آل عمران.
ج - جزء النساء.
د - جزء المائدة.
هـ - جزء الأنعام.
و - جزء الأعراف.
ز - جزء الأنفال.

وذلك باعتبار أوّل كل جزء.

ويروي غير واحد أنّ مصحف « علي » كان ترتيب النزول، وتقديم المنسوخ على الناسخ.

وها نحن أُولاء نثبت ترتيب مصحف الإمام علي وإزاءه نضع ثبتاً بترتيب مصحف أُبي، ومصحف ابن مسعود، ومصحف ابن عباس.

مصحف علي	مصحف أبي	مصحف إبن مسعود	مصحف إبن عباس
١ - البقرة	- الفاتحة	البقرة	- اقرأ
٢ - يوسف	- البقرة	النساء	- ن
٣ - العنكبوت	- النساء	آل عمران	- والضحى
٤ - الروم	- آل عمران	المص	- المزمل
٥ - لقمان	- الأنعام	الأنعام	- المدثر
٦ - حم السجدة	- الأعراف	المائدة	- الفاتحة
٧ - الذاريات	- المائدة	يونس	- تبت
٨ - هل أتى على الإنسان	- الأنفال	براءة	- كورت
٩ - ألم تنزيل	- التوبة	النحل	- الأعلى
١٠ - السجدة	- هود	هود	- والليل
١١ - النازعات	- مريم	يوسف	- والفجر
١٢ - إذا الشّمس كوّرت	- الشعراء	بني إسرائيل	- ألم نشرح
١٣ - إذا السّماء انفطرت	- الحج	الأنبياء	- الرحمن
١٤ - إذا السماء انشقت	- يوسف	المؤمنون	- والعصر
١٥ - يسبح اسم ربك أعلى	- الكهف	الشعراء	- الكوثر
١٦ - لم يكن	- النحل	الصافات	- التكاثر

الجزء الثاني

مصحف علي	مصحف أُبي	مصحف إبن مسعود	مصحف إبن عباس
١٧ - آل عمران	- الأحزاب	الأحزاب	- الدين
١٨ - هود	- بني إسرائيل	القصص	- الفيل
١٩ - الحج	- الزمر	النور	- الكافرون
٢٠ - الحجر	- حم تنزيل	الأنفال	- الإخلاص
٢١ - الأحزاب	- طه	مريم	- النحل
٢٢ - الدخّان	- الأنبياء	العنكبوت	- الأعمى
٢٣ - الحاقّة	- النور	الروم	- القدر
٢٤ - سأل سائل	- المؤمنون	يس	- والشمس
٢٥ - عبس وتولّى	- حم المؤمن	الفرقان	- البروج
٢٦ - والشمس وضحاها	- الرعد	الحج	- التين
٢٧ - إنّا أنزلناه	- طسم	الرعد	- قريش
٢٨ - إذا زلزلت	- القصص	سبأ	- القارعة
٢٩ - ويل لكلّ همزة	- طس	الملائكة	- القيامة
٣٠ - ألم تر كيف	- الإنسان	إبراهيم	- الهمزة
٣١ - لإيلاف قريش	- الصافات	ص	- والمرسلات

الجزء الثالث

مصحف علي	مصحف أُبي	مصحف إبن مسعود	مصحف إبن عباس
٣٢ - النّساء	- داود	الذين كفروا	- ق
٣٣ - النحل	- ص	القمر	- البلد

٣٤ – المؤمنون	– يس	الزمر	– الطارق
٣٥ – يس	– اصحاب الحجر	الحواميم	– القمر
٣٦ – حمعسق	– حم عسق	حم المؤمن	– ص
٣٧ – الواقعة	– الروم	حم الزخرف	– الأعراف
٣٨ – تبارك الملك	– الزخرف	السجدة	– الجن
٣٩ – يا أيّها المدثر	– حم السجدة	الأحقاف	– يس
٤٠ – أرأيت	– إبراهيم	الجاثية	– الفرقان
٤١ – تبت	– الملائكة	الدخان	– الملائكة
٤٢ – قل هو الله احد	– الفتح	إنّا فتحنا	– مريم
٤٣ – والعصر	– محمد	الحديد	– طه
٤٤ – القارعة	– الحديد	سبح	– الشعراء
٤٥ – والسماء ذات البروج	– الظهار	الحشر	– النمل
٤٦ – والتّين والزيتون	– تبارك	تنزيل	– القصص
٤٧ – طس	– الفرقان	السجدة	– بني إسرائيل
٤٨ – النمل	– الم تنزيل	ق	– يونس

الجزء الرابع

مصحف علي	مصحف أُبي	مصحف إبن مسعود	مصحف إبن عباس
٤٩ – المائدة	– نوح	الطلاق	– هود
٥٠ – يونس	– الأحقاف	الحجرات	– يوسف
٥١ – مريم	– ق	تبارك الذي بيده الملك	– الحجر
٥٢ – طسم	– الرحمن	التغابن	– الأنعام

٥٣ – الشعراء	– الواقعة	المنافقون	– الصافات
٥٤ – الزخرف	– الجن	الجمعة	– لقمان
٥٥ – الحجرات	– النجم	الحواريون	– سبأ
٥٦ – ق	– ن	قل اوحي	– الزمر
٥٧ – اقتربت الساعة	– الحاقّة	إنا أرسلنا نوحا	– المؤمن
٥٨ – الممتحنة	– الحشر	المجادلة	– حم السجدة
٥٩ – والسّماء والطارق	– الممتحنة	الممتحنة	– حم عسق
٦٠ – لا أقسم بهذا البلد	– المرسلات	يا أيّها النبيّ لم تحرم	– الزخرف
٦١ – ألم نشرح لك	– عمّ يتساءلون	الرحمن	– الدّخان
٦٢ – والعاديات	– الإنسان	النجم	– الجاثية
٦٣ – إنا اعطيناك الكوثر	– لا أقسم	الذاريات	– الأحقاف
٦٤ – قل يا أيّها الكافرون	– كورت	الطور	– الذاريات

الجزء الخامس

مصحف علي	مصحف أُبي	مصحف إبن مسعود	مصحف إبن عباس
٦٥ – الأنعام	– النازعات	الحاقة	– الكهف
٦٦ – سبحان	– عبس	اقتربت الساعة	– الغاشية
٦٧ – اقتربت	– المطففون	إذا وقعت	– النحل
٦٨ – الفرقان	– إذا السماء انشقت	ن والقلم	– نوح
٦٩ – موسى	– التّين	النازعات	– إبراهيم
٧٠ – فرعون	– اقرأ باسم ربّك	سأل سائل	– الأنبياء
٧١ – حم	– الحجرات	المدثر	– المؤمنون

٧٢ – المؤمن	– المنافقون	المزمل	– الرعد
٧٣ – المجادلة	– الجمعة	المطففين	– الطور
٧٤ – الحشر	– النبي	عبس	– الملك
٧٥ – الجمعة	– الفجر	الدّهر	– الحاقة
٧٦ – المنافقون	– الملك	القيامة	– المعارج
٧٧ – ن والقلم	– والليل إذا يغشى	المرسلات	– النّساء
٧٨ – إنّا أرسلنا نوحا	– إذا السّماء انفطرت	عمّ يتساءلون	– والنازعات
٧٩ – قل اوحى إلي	– الشمس وضحاها	التكوير	– انفطرت
٨٠ – المرسلات	– والسماوات ذات البروج	الإنفطار	– انشقت
٨١ – والضحى	– الطارق	هل أتاك حديث الغاشية	– الرّوم
٨٢ – ألهاكم	– سبّح اسم ربك الاعلى	سبّح اسم ربك الأعلى	– العنكبوت

الجزء السادس

مصحف علي	مصحف أُبي	مصحف إبن مسعود	مصحف إبن عباس
٨٣ – الأعراف	– عبس	والليل إذا يغشى	– العنكبوت
٨٤ – إبراهيم	– الغاشية	الفجر	– البقرة
٨٥ – الكهف	– الصف	البروج	– الأنفال
٨٦ – النّور	– الضحى	انشقت	– آل عمران
٨٧ – ص	– ألم نشرح	اقرأ باسم ربّك	– الحشر
٨٨ – الزمر	– القارعة	لا أقسم بهذا البلد	– الأحزاب

الجزء السابع

مصحف علي	مصحف أُبي	مصحف إبن مسعود	مصحف إبن عباس
٨٩ - الشريعة	- التكاثر		والضحى - النّور
٩٠ - الذين كفروا	- الخلع		ألم نشرح - الممتحنة
٩١ - الحديد	- الحديد		والسّماء والطارق - الفتح
٩٢ - لا أُقسم بيوم القيامة	- اللّهم إياك نعبد		والعاديات - النّساء
٩٣ - عم يتساءلون	- إذا زلزلت		أرأيت - إذا زلزلت
٩٤ - الغاشية	- العاديات		القارعة - الحج
٩٥ - والفجر	- أصحاب الفيل		لم يكن الذين كفروا - الحديد
٩٦ - والليل إذا	- التّين		الشمس وضحاها - محمد
٩٧ - إذا جاء نصر الله	- الكوثر		التّين - الإنسان

الجزء الثامن

مصحف علي	مصحف أُبي	مصحف إبن مسعود	مصحف إبن عباس
٩٨ - الأنفال	- القدر		ويل لكل همزة - الطلاق
٩٩ - براءة	- الكافرون		الفيل - لم يكن
١٠٠ - طه	- النصر		لايلاف قريش - الجمعة
١٠١ - الملائكة	- أبي لهب		التكاثر - ألم السجدة
١٠٢ - الصافات	- قريش		إنا أنزلناه - المنافقون
١٠٣ - الأحقاف	- الصمد		والعصر - المجادلة
١٠٤ - الفتح	- الفلق		إذا جاء نصر الله - الحجرات
١٠٥ - الطور	- الناس		الكوثر - التحريم

١٠٦ - النجم	- الكافرون	الكافرون	- الشغابة
١٠٧ - الصف	- النّاس	المسد	- الصف
١٠٨ - التغابن	- النّاس	قل هو الله احد	- المائدة
١٠٩ - الطلاق	- النّاس	قل هو الله احد	- التوبة
١١٠ - المطفّفون	- النّاس	قل هو الله احد	- النصر
١١١ - المعوذتين	- النّاس	قل هو الله احد	- الواقعة
١١٢ - المعوذتين	- النّاس	قل هو الله احد	- والعاديات
١١٣ - المعوذتين	- النّاس	قل هو الله احد	- الفلق
١١٤ - المعوذتين	- النّاس	قل هو الله احد	- الناس (٦٧)

الباب الثاني

اضطهاد الإمام والتحامل على سمعته

قال الفيلسوف الألماني الشهير في كتابه « هكذا تكلّم زرادشت » « لا يحسد الناس على شيء أكثر من حسدهم لسمعة المحلّق فوق رؤوسهم في السحاب!... ».

لقد كان الإمام علي نسراً محلّقاً في السحاب فتكالب عليه الخصوم المقصّرون عن شأوه.

شجاعةً، ولطفاً، وسماحةً، وتواضعاً، وحلماً، وعلماً وسداد رأي، فأحاطوه بالدسائس، وأطلقوا حوله المفتريات إلى أن لاقى ربه، فكان اغتياله موقظاً للضمائر، لكنّ الحاقدين على فضائله، كانوا يخافونه وهو في قبره فطاردوا سمعته مطاردة تنمّ على حقارة الإنسان المسكين يوم يتسرّب الحقد في قلبه.

فالإمام علي في اعتقادنا شخصيّة فذّة لا يستطيع الباحث تحديدها. وحسبنا أن ننقل ما قال « توماس كارليل » الكاتب البريطاني قال: « فقد كان الإمام علي ألمع الأئمّة المسلمين وأعظمهم. فقد عُرِف في شبابه وكهولته بالكثير من المآثر وأعمال البطولة التي تخلّد شجاعته الفائقة في التاريخ، وتبرر لقب « الأسد » الّذي لقّبه به النبي الكريم، كما عُرف في شيخوخته بورعه وزهده ودماثة خلقه. ولا يسع المرء غير المتعصّب إلاّ أن يُعجب بشخصيّته الملهمة المحبوبة للغاية، كما عرف عنه من إخلاص تام، وتفان متناه لمعلّمه وسيّده، النبيّ « محمّد » وقد أدى قتله بالطريقة الّتي قُتل فيها إلى انتشار شهرته وذيوع صيته في الخافقين ».

فلقد وضع معاوية قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار

قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطّعن فيه، والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه. منهم: -

أ - أبو هريرة.

ب - وعمرو بن العاص.

ج - والمغيرة بن شعبة. - هؤلاء من الصحابة.

ومن التابعين: -

عروة بن الزبير.

قال ابن ابي الحديد روى الزهري أنّ عروة بن الزبير حدّثه قال: « حدثتني عائشة قالت كنت عند رسول الله إذ أقبل العباس، وعلي، فقال: - يا عائشة إنّ هذين يموتان على غير ملّتي أو قال ديني.

وهذا الرجل مأجور على ما قال، مدفوع له ثمن كلامه أكثر من دينه، وأشنع منه ما كان يتقوله أبو هريرة على أسد الإسلام، فأبو هريرة شهد في حقه الإمام علي قال: « ألا إنّ أكذب النّاس - أو قال أكذب الأحياء - على رسول الله وآله أبو هريرة. روى ذلك ابن أبي الحديد ج ١ ص ٤٦٩ وفي نفس الصفحة قال:

وقد ضرب عمر بن الخطاب أبا هريرة بالدرة وقال قد أكثرت من الرواية، وأحر بك أن تكون كاذباً.

وروت الرواة أنّ أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان في الطريق ويلعب معهم وكان يخطب وهو أمير المدينة فيقول الحمد لله الذي جعل الدين قياماً، وأبا هريرة إماماً يضحك الناس بذلك. وكان يمشي وهو أمير المدينة في السوق فإذا انتهى إلى رجل يمشي أمامه ضرب برجليه الأرض، ويقول: « الطريق الطريق قد جاء الأمير » يعني نفسه.

والمؤرّخون يذكرون أنّ أبا هريرة ولي المدينة مكافأة له على طعنه في الإمام علي.

أمّا المغيرة بن شعبة فإنّه كان يلعن علياً عليه السلام لعناً صريحاً على منبر الكوفة وكان قد بلغ المغيرة عن علي عليه السلام في أيام عمر أنّه قال: « لئن رأيت المغيرة لأرجمنّه بالحجارة » يعني واقعة الزنا بالمرأة التي شهد عليه فيها أبو بكر ونكل زياد عن الشهادة. فكان يبغضه لذلك.

وقد جاء في شرح نهج البلاغة: «أنّ المغيرة صاحب دنياً يبيع دينه بالقليل النزر منها يرضي معاوية بذكر علي بن أبي طالب عليه السلام».

من بغضهم للإمام علي وتحاملهم عليه أنّ معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أنّ هذه الآية أُنزلت في علي عليه السلام: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه، وهو الدّ الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد﴾. وأنّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد» (٥).

فلم يقبل، فبذل له مائتي الف درهم، فلم يقبل فبذل له أربعمئة الف فقبل. وروى ذلك. قال: «وقد صح أنّ بني اميّة منعوا من إظهار فضائل علي عليه السلام، وعاقبوا ذلك الراوي له، حتى أنّ الرجل إذا روى عنه حديثا لا يتعلق بفضله بل بشرائع الدين، لا يتجاسر على ذكر اسمه فيقول: عن أبي زينب.

«ومن تحامل خصومه «ع» أنهم صوروه تارة سفّاكاً للدماء في سبيل الخلافة، وطوراً حقوداً على من تقدّم من الخلفاء شغفاً بالخلافة، وآناً ضعيف السياسة في إدارة مهام الخلافة، وآونة عملوا على إضعاف عصبته وتفريق الجماعات عنه: إمّا بالرشا وبذل المغانم لضعفاء النفوس والإيمان، وإمّا بالإخافة لاحزابه وتشريدهم وتقتيلهم وما إلى ذلك من ضروب النكاية دع ما سوّل لهم الطمع في منازعته على الخلافة، الحقّ، ووضع الحديث الكاذب في ثلبه ومدح عدوه، وبذل الرشا في هذا السبيل، وكان لهم من الخوارج في صِفّين ما ساعدهم على تمثيل أمثال هذه الفصول».

---

(٥) قال الرازي والثعلبي والنيسابوري في تفاسيرهم انها نزلت في علي عليه السلام وقيل نزلت في (مهيب بن سنان) اراده المشركون على ترك الاسلام، قتلوا نفرا كانوا معه. فقال لهم: «انا شيخ كبير، ان كنت معكم لم انفعكم، وان كنت عليكم لم اضربكم، فخلوني وما انا عليه وخذوا مالي فقبلوا منه ماله واتى المدينة. تفسير الكشاف ص ١٢٧ الطبعة الاولى سنة ١٣٥٤ هـ.

وقد تجاوزوا ذلك فنسبوا روائع خُطَبه إلى خصمه!

ومن حقد القوم على الإمام علي منعوا التسمية باسمه الكريم ومنعوا التكني بكنيته الشريفة، وفرضوا لعنه من على المنابر كما هو مشهور إلى أن جاء الخليفة « عمر بن عبد العزيز » واستبدل باللعن: آية « إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان، وايتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون! ».

وبلغ من حقد القوم على الإمام علي أنّ أبناءه كانوا مضطرين أن يخفوا قبره، خوفا من خصومه أن يحدثوا في قبره حدثا، فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة، وهي ليلة دفنه، إيهامات مختلفة، فشدّوا على جمل تابوتا موثقا بالحبال، تفوح منه روائح الكافور وأخرجوه من الكوفة في سواد الليل صحبه ثقاتهم يوهمون أنّهم يحملونه إلى المدينة، فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام، وأخرجوا بغلاً وعليه جنازة مغطّاة، يوهمون أنّهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عدة منها بالمسجد، ومنها برحبة القصر، قصر الإمارة ومنها في حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزومي، ومنها أصل دار عبد الله بن يزيد القسري بحذاء باب الوراقين، مما يلي قبلة المسجد، ومنها في الكناسة، ومنها في الثويّة، فعمي على الناس موضع قبره، ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلاّ بنوه، والخواص المخلصون من أصحابه، فإنّهم خرجوا به عليه السلام وقت السحر في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان فدفنوه على النجف، بالموضع المعروف بالغري، بوصاة منه عليه السلام إليهم!... »

كذا تكون نهاية العظماء يطاردهم أهل الأرض أحياء ويرهبون عظمتهم أمواتاً! لم يكن حظ الإمام علي وحده أن يخفي محبّوه قبره خوفاً من أعداء العظمة، بل دفنت زوجه الزهراء في الليل سرّاً، وعفي قبرها، ولم يعلم موضعه على التّحقيق إلى اليوم، فتزار في ثلاثة مواضع، ولم يشهد جنازتها إلاّ عليّ وولداها، ونفر من بني هاشم، ونفر قليل من الصحابة!...

وعلى كلّ هذا التحامل والإضطهاد الّذي يثير الضمير الإنساني، فإنّ عظمة الإمام كانت وما زالت تزداد، ومجد خصومه في زوال!...

علم الإمام علي

قبل أن أخطّ كلمة في هذا الموضوع، أرى من واجبي أن أُحدّد المقصود بكلمة علم في عصر الإمام، لئلاّ يقال إنّي أُحمّل الكلام مالا يحتمل!

فالعلم كما حدّده العرب هو المعرفة اليقينيّة، وإدراك الشيء بحقيقته.
أو المعرفة المنظّمة. وقد فسّر بعضهم العلم بالمعرفة، وفسّروا المعرفة بالحكمة.

وفي عصر الإمام وما بعده كانت كلمة العلم تعني التفقّه في الدين، فإذا كان هذا مفهوم الكلمة في عهد الإمام، فما أظنّ أنّ أحداً يجادلني، في أنّ الإسلام في عصوره المختلفة لم ير من هو أفقه في الدين الإسلامي من الإمام علي، بشهادة النبيّ « ص » أقضاكم علي. وبشهادة معاصريه « لولا علي لهلك عمر! ».

ولنسمع بعض الشهادات الّتي تعظّم علمه وحكمته، جاء في اسبوع الإمام نقلا عن شرح النهج « وأمّا الحكمة والبحث في الامور الالٰهية، فلم يكن من فنّ أحد من العرب، ولا نقل في جهاز أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به، وأوّل من خاض به من العرب علي عليه السلام، ولذلك نجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة في فرش كلامه وخطبه، ولا نجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك، ولا يتصوّرونه ولو فهموه لم يُفْهِموه، وأنّى للعرب ذلك؟ ولهذا انتسب المكلّمون الّذين لججوا في بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره، وسمّوه أُستاذهم ورئيسهم وجذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها! ألا ترى أنّ أصحابنا « يعني المعتزلة » ينتمون إلى واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية

وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام. فأمّا الشيعة من الإمامية والزيدية والكيسانية فانتماؤها إليه ظاهر. وأمّا الأشاعرة فانهم ينتمون إليه أيضاً. لأنّ أبا الحسن الأشعري تلميذ شيخنا أبي علي رحمه الله تعالى.

وأبو علي تلميذ أبي يعقوب الشّحام، وأبو يعقوب تلميذ أبي الهذيل، وأبو الهذيل تلميذ أبي عثمان الطويل وأبو عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء، فعاد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى علي عليه السلام!...

وقد كان الإمام علي عالماً بالتوراة والإنجيل والقرآن أشدّ العلم بدليل قوله: «لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفُرقان بفرقانهم، وما من آية في كتاب الله أُنزلت في سهل أو جبل إلاّ وأنا عالم متى نزلت، وفيمن أُنزلت. فقال رجل من القعود تحت المنبر،: «يا لله وللدعوى الكاذبة!» وقال آخر إلى جانبه: «أشهد أنّك أنت الله رب العالمين!» قال فانظر إلى هذا التناقض والتباين فيه!».

وجاء في «مختصر تاريخ العرب والتمدّن الإسلامي» ما حرفه: «وفيما كان الإسلام ينتشر، وتخفق راياته على ربوع تلك الأمصار كان علي بن أبي طالب يصرف جهوده في المدينة لتوجيه نشاط العنصر العربي الناشيء إلى الناحية العلمية، فشرع مع ابن عمه عبد الله بن العباس في إلقاء محاضرات أُسبوعية في المسجد الجامع في الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة! بينما تفرّغ غيرهما إلى إلقاء محاضرات في شؤون أُخرى. وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية الّتي ترعرعت وزهت بعد حين في بغداد عاصمة العباسيين». إنتهى المراد نقله.

كانت الأُمة الإسلامية منقسمة قسمين:

أ - مجبِّرة قدرية تبرّىء بعض الصحابة من الأغلاط!

ب - ومفوِّضة تقول باختيارهم وهم الخوارج المكفرون لذوي المعاصي.

لكنَّ أمير المؤمنين وفّق بين آراء القسمين وحلّ مشكلة الخلاف حلاًّ لا يؤتاه إلاّ ألمعي ملهم. وكان جوابه للشامي الذي قال: «ما وطأنا موطئا ولا هبطنا وادياً إلاّ بقضاء الله وقدره».

فأجابه الإمام علي بما حل المشكلة أعظم حل وأدقه!

« ويحك لعلّك ظننت قضاء لازماً وقدراً حاتماً، ولو كان ذلك كذلك، لبطل الثّواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إنّ الله سبحانه وتعالى أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً! » فما أروع الحكمة! وما أعظم فصل الخطاب! ولعلّ أعظم الأدلة على منزلة علي العلمية قول عمر بن الخطاب « أعوذ بالله من معضلة، ليس لها أبو الحسن!... ».

الحقيقة أنّ للإمام علي ابتكارات تكاد تكون من المعجزات منها:

أ - ابتكار علم النحو، فإنّه لمّا رأى الحاجة ماسة لضبط اللغة العربية دعا أبا الأسود واختصر له أُسس هذا العلم وقال له انح هذا النحو.

ب - ومنها ما أشار إليه كتاب (اسبوع الإمام تحت عنوان (خلود الإمام) من وثبات فكريّة تتعلّق بعلم الآثار، وبتاريخ العراق القديم، ومنها ما تتعلّق بعلم الصحّة، مثل المناعة والوقاية، ومنها ما هو خاص بعلم الميكانيكيا والآلات، والفيزياء، ومنها ما هو خاص بعلم المال والإقتصاد.

ج - أمّا علمه بالتجارة والصناعة فقد دلّت عليه وصاياه الّتي تصلح أن تكون دستوراً في كل زمان لوقاية المجتمع من الرِقّ الإجتماعي ولعلّها خير علاج لمشكلة الفقر.

ولعلّ أعظم ما يدلّ على سعة آفاقه العلمية اجتهاداته حيث لا يوجد نص صريح، لا في كتاب ولا في سنّة. من ذلك ما رواه العلاّمة محمد بن قيم الجوزية قال: « خاصم غلام من الأنصار أُمّه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجحدته فسأله البيّنة، فلم تكن عنده، وجاءت المرأة بنفر فشهدوا أنّها لم تزوّج وأنّ الغلام كاذب عليها، وقد قذفها فأمر عمر بضربه، فلقيه علي رضي الله عنه. فسأل عن أمرهم فدعاهم، ثم قعد في مسجد النبي (ص). وسأل المرأة فجحدت، فقال للغلام اجحدها كما جحدتك. فقال: « يا ابن عم رسول الله (ص)، إنّها أُمّي! » قال: « اجحدها وأنا أبوك والحسن والحسين أخواك » قال: « قد جحدتها وأنكرتها » فقال علي لأولياء المرأة « أمري في هذه المرأة جائز؟ » قالوا: « نعم وفينا أيضا! » فقال علي « اشهدوا من حضر أنّي قد زوجت هذا الغلام من هذه المرأة الغريبة منه » ودفع لها أربعمائة وثمانين درهما مهراً لها!

وقال للغلام: « خذ بيد امرأتك، ولا تأتينا إلاّ وعليك آثار العرس! »
فلمّا ولّى قالت المرأة: « يا أبا الحسن! الله الله هو النار هو والله إبني » قال: كيف ذلك؟

قالت: « إنّ أباه كان زنجيا، وإنّ إخوتي زوّجوني منه، فحملت بهذا الغلام، وخرج الرجل غازيا فَقُتِلَ، وبَعثت بهذا إلى حي بني فلان، فنشأ فيهم وأنفت أن يكون ابني »

وهذا الاجتهاد يدلّ على ما وهب الله للإمام من العلم والذكاء الّذي يبلغ حدّ المعجزة، ولولا ذلك لظلم هذا الولد، لكنّ الإمام أدرك من ارتباك المرأة أنّ في قضيّتها سرّاً وأنّ المرأة إذا كان في قلبها ذرة من الإيمان والإنسانيّة لن تقبل الزواج بابنها، فكان ذكاؤه وعلمه واجتهاده السبيل إلى حلّ هذه المعضلة

ومن اجتهاده ليتمكّن من الوصول إلى الحقيقة، ما ذكرناه عنه الأصبغ بن نباته قال: « إنّ شابّاً شكا إلى علي رضي الله عنه نفراً، فقال إنّ هؤلاء خرجوا مع أبي في سفر فعادوا، ولم يعد أبي فسألتهم عنه، فقالوا: « مات، ما ترك شيئاً، وكان معه مال كثير، وترافعنا إلى شريح فاستحلفهم وخلّى سبيلهم. فدعا علي بالشرط، فوكّل بكلّ رجل رجلين وأوصاهم أن لا يمكّنوا بعضهم أن يدنو من بعض، ولا أن يمكّنوا أحداً يكلّمهم ودعا كاتبه، ودعا أحدهم فقال أخبرني عن أب هذا الفتى أي يوم خرج معكم؟ وفي أي منزل نزلتم؟ وكيف كان سيركم؟ وبأيّ علّة مات؟ وكيف أُصيب بماله؟ وسأل عمن غسله ودفنه ومن تولّى الصلاة عليه وأين دفن، والكاتب يكتب، فكبّر علي، فكبّر الحاضرون والمتهمون لا علم لهم إلاّ أنّهم ظنوا أنّ صاحبهم قد أقرّ عليهم، ثم دعا آخر بعد أن غيّب الأول من مجلسه، فسأله كما سأل صاحبه، ثم الآخر كذلك، حتى عرف ما عند الجميع، فوجد كل واحد يخبر بضد ما أخبر صاحبه

ثم أمر برد الأوّل فقال: « يا عدوّ الله قد عرفت عنادك وكذبك بما سمعت من أصحابك، وما ينجيك من العقوبة إلاّ الصدق ثم أمر به إلى السجن وكبّر وكبّر معه الحاضرون. فلمّا أبصر القوم الحال، لم يشكّوا أن صاحبهم أقرّ عليهم، فدعا آخر منهم فهدّده فقال: « يا أمير المؤمنين والله قد كنت كارها لما صنعوا، ثم دعا الجميع،

فأقرّوا بالقصة، واستدعى الّذي في السجن، وقيل له قد أقرّ أصحابك ولا ينجيك سوى الصدق فأقرّ بما أقرّ به القوم فأغرمهم المال، وأقاد منهم القتيل.

ونحن إذا رأينا ما يقوم به محقّقوا أيامنا نعلم أنّهم ينسجون على منوال الإمام الحكيم، الّلهم إنّ الإمام استعمل ذكاءه وفطنته، وهؤلاء كثيراً ما يستعملون التّعذيب، ليحصلوا من المتّهم على الإقرار الّذي يبتغونه!...

كيف بايع الإمام من سبقه

قلنا إنّ الإمام علياً بايع الخلفاء الّذين سبقوه حرصاً على سلامة الدّين الجديد أن تمسّ، وخوفاً على وحدته أن تصدّع، أجل لقد فعل هذا وهو واثق أنّه يتنازل عن حقّ له: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أُبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذاالأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة، من النبيّ «ص» وتأخذونه منّا أهل البيت غصباً، ألستم زعمتم للأنصار أنّكم أولى بهذا الأمر منهم لّما كان محمّد منكم، فأعطوكم المقادة وسلّموكم الإمارة، فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، فنحن أولى برسول الله حيّاً وميتاً، فأنصفونا، إن كنتم تؤمنون!».

ومع هذا فقد بايع، ونصح للخلفاء، وأخلص لله ولدينه اخلاصاً رائعاً.

لكنّ كلماته تلك، كانت سيوفا شهرها خصومه في وجهه يوم بويع بعد النكبة العمياء والفتنة الصاخبة، ولم يجده نفعاً دفاعه الحقّ عن نفسه، ونفيه الشركة في جريمة الإغتيال. ما أفادته شهادة المؤرخين الأثبات: «جاء في رواية «شداد بن أوس» أنّ عليّاً رضي الله عنه خرج من منزله يومئذ معتماً بعمامة رسول الله متقلّداً سيفه، أمامه الحسن، وعبد الله بن عمر، في نفر من المهاجرين والأنصار، حتّى حملوا على الناس وفرّقوهم، ثم دخلوا على الخليفة فسلّم عليه علي... وقال بعد تمهيد وجيز: «لا أرى القوم إلاّ قاتليك، فمرنا فلنقاتل». فقال الخليفة: «أُنشد الله رجلاً رأى لله حقا، وأقر أنّ عليه حقّاً، أن يهريق في سبيي ملء محجمة من دم، أو يهريق دمه فيَّ!» فأعاد علي القول فأعاد عليه هذا الجواب... ثم خرج من عنده إلى المسجد، وحضرت الصلاة، فنادوه، يا أبا الحسن، تقدّم فصلّ بالناس..» فقال: «لا أُصلي والإمام محصور، ولكنّي أُصلي وحدي!» ثم صلّى وحده، وانصرف،

إلى منزله، وترك ابنيه، مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة. ليعلم الثوار أنّهم معتدون على كل ذي خطر في الإسلام، إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء!... عساهم إن علموا ذلك أن يتهيّبوا المركب، فلا ينزعوا بالشرّ غاية منزعه!

فبعد الحادث الفظيع، بويع الإمام علي بالخلافة بايعه الصحابة كافّة، والثوّار جميعاً، سوى نفر طلبوا منه أن يعفيهم من البيعة فأعفاهم منها وهم:

أ - سعد بن أبي وقاص.

ب - عبد الله بن عمر بن الخطاب

ج - محمد بن مسلمة

ر - وأُسامة بن زيد.

ولم تمض أيام على بيعته حتى خرج عليه طلحة والزبير، فاسمع ما يقول الإمام: «وبايعني طلحة والزبير، وأنا أعرف الغدر في وجهيهما، والنكث في أعينهما، ثم استأذناني في العمرة، فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان، فسارا إلى مكّة واستخفّا عائشة وخدعاها، وشخص معهما أبناء الطلقاء فقدموا البصرة وقتلوا بها المسلمين، وفعلوا المنكر إلى أن يقول - وخرجا يوهمان الطغام أنّهما يطلبان بدم عثمان، والله ما أنكرا عليّ منكراً، ولا جعلا بيني وبينهما نصفاً، وانّ دم عثمان لمعصوب بهما، ومطلوب منهما!

يا خيبة الداعي الإمام دعا وبماذا أُجيب، والله انّهما لعلى ضلالة صمّاء وجهالة عمياء، وإنّ الشيطان قد ذمّر لهما حزبه، واستجلب منهما خيله ورجله ليعيد الجور إلى أوطانه، ويردّ الباطل إلى نصابه، ثم رفع يديه فقال: «اللّهم إنّ طلحة والزبير قطعاني وظلماني والّبا عليّ، ونكثا بيعتي، فاحلل ما عقدا، وانكث ما أبرما، ولا تغفر لهما أبدا!».

قال أبو مخنف فقام إليه الأشتر وتكلّم إلى أن قال: «... فإن زعما أنهما يطلبان بدم عثمان، فليقيدا من أنفسهما، فإنهما أوّل من ألّب عليه وأغرى الناس بدمه».

فمما تقدم نرى أنَّ الإمام كان بريئاً ممّا وصم به، نقيّاً ممّا نسب إليه ظلماً. لكنَّها حادثة استغلها أصحاب المطامع ليستروا صراعاً كان تطوّر الزّمن يساعد عليه - فإذا ساغ لنا نبدي رأيا في هذا الموضوع، رأيناه صراعاً بين آثار الجاهلية والحكومة الدنيوية التي يريدها القوم، وبين الحكومة الدينية التي يريدها هي تراث تطلب عند الإمام علي شخصيّاً، وحسد لمكانة بني هاشم الممتازة التي فرضتها قرابتهم من النّبي، فالتّعظيم والإجلال الذي حمله كل مسلم في قلبه للنبيّ العظيم، انقلب نقمة على عترته « ص » وكان بعض الحاقدين الحاسدين مسؤولاً لأنّه يعلم ما يصنع، وكان بعضهم غير مسؤول فعلا عن حقده وحسده ونقمته لأنّها انتقلت إليه لا شعوريّاً أو بالعدوى، وأما بالتلقين. فكانت نتيجة ذلك أنّها فوّتت على الإسلام أن يستفيدوا من عبقريّة أعظم مسلم وأنبل مسلم وأشرف من عرف الإسلام الّذي هو أسد الإسلام وقِدّيسه. وهكذا تجمعت الأحقاد كلّها، والمحاسد جميعها، لتصوغ سيفاً من الغدر مسموماً، يغتال به ابن ملجم الإمام العظيم. الّذي أراد من يوم تولّيه الخلافة أن يعالج أعظم المشاكل الإجتماعية تعقيداً! فأراد أن يفرض المساواة على النّاس غير مستثنٍ نفسه وأقرب المقرّبين إليه، وأراد أن يعالج مشكلة الفقر الّذي هو السّبيل إلى الكفر، إن لم يكن هو الكفر، لأنّه الطريق لكلّ موبقة اجتماعية. فاسمعه يقول:

أ - « ما جاع فقير، إلاّ بما متّع به غني! ».

ب - ما رأيت نعمة موفورة، إلاّ وإلى جانبها حقّ مضيّع. ».

وقد كان همّه الأوّل أن لا يدع في البلاد جائعاً، وأن لا يترك حقاً مضيعاً.

نرى ذلك واضحا في قوله يوم ولّي الخلافة: أيّها الناس! « لا يقولنَّ رجال منكم غداً غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرفقة إذا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأمرتهم إلى حقوقهم الّتي يعلمون: - حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا، ألا وأي رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أنّ الفضل له على سواه بصحبة، فإنّ الفضل غداً عند الله، وأنتم عباد الله، والمال مال الله. يقسم بينكم بالسويّة ولا فضل فيه لأحد على أحد ».

وأراد أن يلغي الرشوة ويقطع دابرها!.

نراه يشنّها حرباً على الفساد بقوله: «ولكنّني آسى أن يلي أمر هذه الأُمّة سفهاؤها وفجّارها، فيتّخذون مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً والفاسقين حزباً!».

لقد حارب الإحتكار عملاً بقول النبي «ص».

أ - الجالب مرزوق والمحتكر ملعون.

ب - لا يحتكر الطعام إلاّ خاطىء.

أمّا قول الإمام فقد كان في منتهى الوضوح والصراحة: «واعلم مع ذلك أنّ في كثير منهم - التجار - ضيقاً فاحشاً، وشحّاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكّماً في البياعات، وذلك باب مضرّة للعامّة، وعيب على الولاة، فامنع الإحتكار. فإنّ رسول الله «ص» منع منه، وليكن البيع سمحاً بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة من بعد نهيك إيّاه فنكّل به، وعاقبه من غير إسراف!».

لم يكتف أيام خلافته بذلك بل عاش كما يعيش أشدّ الفقراء بؤسا ليمرّ تجربة الفقر ويشعر مع الفقراء كأعمق ما يكون الشعور. ولئلاّ يجور على حقوق العباد بالنّعم وهم عراة جائعون!

ذكر أبو بكر أحمد بن مروان المالكي بسنده عن هرون بن عنزة، عن أبيه قال: «دخلت على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بالخورنق وعليه قطيفة، وهو يرعد من البرد فقلت: «يا أمير المؤمنين، إنّ الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت تفعل بنفسك هذا؟ فقال إنّي والله لا أرزأ من أموالكم شيئاً، وهذه القطيفة الّتي أخرجتها من بيتي، أو قال من المدينة.».

وبعد فلا عجب إذا قلنا أنّ غياب ذلك الوجه السمح، والنفس الزكية عن دست الخلافة، كان ضربة للعدالة، ونكبة للسماحة، ورزءاً للعدالة الإجتماعية والمساواة!

بيعة الامام علي

وقعت الفاجعة الّتي لم يعرِفْ تاريخ الإسلام قبل وقوعها شبيهاً لها!..

ولو أطاع عثمان زوجه السيدة نائلة، وقرّب الإمام علياً« ع » ووثق به، وأقصى ولاته الّذين هم أصل الشكوى، وأبعد مروان بن الحكم طريد النبي « ص » لكان هنالك أمل في تلافي الفتنة، لكنّه القدر:

«إذا أراد الله أمراً بامرىءٍ وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصمَّ أُذنيه، وأعمى قلبه، وسلَّ منه عقله سلَّ الشعر
حتّى إذا أنفذ فيه أمره، ردَّ إليه عقله ليعتبر،
فلا تقل فيما جرى كيف جرى؟ فكلّ شيء بقضاء، وقدر!...»

أجل هو القدر الّذي جرَّ على الأُمة إعصاراً من الفتنة، ظلّ يهزّ كيانها ويزلزل أركانها فلا تستقر على حال. كان ذلك كلّه إيذاناً بأنّ الصراع بين الدّين والدنيا قد بدأ...

وجاء الثّوار وكلهم يقول: « لا يصلح لها - الخلافة - إلاّ علي ! » وكان يوم الجمعة فصعد الامام علي المنبر، وكان أوّل من بايعه، صاحب اليد الشلاّء كأنّما هو إنذار بالبلاء، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم!... طلحة أوّل المبايعين، وهو أوّل الناكثين!

غدر! لقد كان طلحة طامعاً في الخلافة، وكان الزبير طمّاحاً إليها.

الزبير زوج أُخت عائشة امّ المؤمنين - رضي الله عنها - إنّه زوج أسماء وفي استطاعته أن يستغلّ هذه القرابة يناهض بها الإمام علياً الحجة الظاهرة هي المطالبة بدم عثمان!...

أ - وطلحة كان مدخول الضمير من نحو عثمان قبل أن يقتله الثائرون وقد صرّح عثمان « رض » بذلك قائلا: « ويلي من طلحة أعطيته كذا وكذا ذهباً، وهو يروم دمي... اللّهم لا تمتّعه به، ولقّه عواقب بغيه! » حتى قيل إنّه كان يقود بعض الثائرين إلى الدُّور المجاورة لدار الخليفة ليتسرَّبوا منها إلى دار عثمان!

ب - معاوية يطالب بثأر عثمان ويدّعي أنّ الإمام علياً مقصّر في المطالبة بدم عثمان، ولّما تولّى هو أغفل ذكر عثمان البتّة فيكتب الإمام علي لمعاوية واعظا بعد وقعة الجمل:

« سلام عليك!.. أمّا بعد.

فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنّه بايعني الّذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً، كان ذلك لله رضىً، وإن خرج عن أمرهم ردوه، إلى ما خرج عنه، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولّى، وأصلاه جهنّم وساءت مصيرا. ».

وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما، وكان نقضهما كردّهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما، حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الامور إلي قبولك العافية، وقد أكثرت في قتلة عثمان، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون... ثم حاكمت القوم إليَّ حملتك وإياهم على كتاب الله. أمّا تلك الّتي تريدها - أي الخلافة - فهي خدعة الصبيّ عن اللّبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنني أبرأ قريش من دم عثمان، واعلم أنّك من الطلقاء - الّذين اطلقوا يوم فتح مكة - الّذين لا تحلّ لهم الخلافة، ولا يدخلون في الشورى، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك « جرير بن عبد الله »، وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايعه، ولا قوّة إلاّ بالله! ».

فأجابه معاوية بالكتاب التالي:

« سلام عليك... أمّا بعد.

فلعمري لو بايعك الّذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنّك أغريت بدم عثمان، وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل،

وقوي بك الضعيف. وقد أبى أهل الشام إلاّ قتالك حتّى تدفع إليهم قتلة عثمان!...

فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإنّما كان الحجازيّون هم الحكّام على النّاس والحقّ فيهم، فلمّا فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على طلحة والزبير، إن كان بايعاك، فلم أُبايعك أنا. فأمّا فضلك على الإسلام، وقرابتك من رسول الله صلّى الله عليه وسلم فلست أدفعه».

فمن القراءة بين السطور - كما يقولون - ومن مناقشة ما وراء هذه الأقوال نرى أنّ معاوية مصمّم على نيل الخلافة عازم على القضاء على كل فكرة تحاول تركيز السلطة في الحجاز. وهو بالتّالي يريد أن يثبّت الخلافة في بني اميّة، فكأنّه يترجم قول «مروان بن الحكم» وهو يكلّم الناس والخليفة محاصر: -

«ما شأنكم اجتمعتم كأنّكم جئتم لنهب، شاهت الوجوه... جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا... إرجعوا إلى منازلكم، فإنّا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا!».

لقد كانت فكرة معاوية فكرة كل أُموي، لم تعد المسألة عندهم مسألة خلافة، ولا شورى، إنّها قضيّة ملك، ويجب أن يظلّ خالداً في بني امية

وكأنّ الرجل أخذت تراوده فكرة أبيه، إنّه لاجنة ولا نار، إنّما هي دنيا وملك ليسلك إليه الرّجل كل سبيل!

وهكذا بدأت الفتنة العمياء، في أُمور أخذها الناس على الخليفة أهمها: -

أ - مخالفته بعض السنن الّتي اتّبعها النّبي «ص» في الأذان والصلاة.

ب - إدناؤه بعض الّذين أقصاهم النبيّ «ص» عن المدينة من أقربائه.

ج - بذله العطاء لهؤلاء المقصين بسخاء.

د - تعيينه أبناء أُسرته في الولايات والمناصب.

هـ - منحه سفيان بن حرب مائتي ألف درهم من بيت المال.

و - منحه الحارث بن الحكم زوج بنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال.

ز - احتجازه الأموال والضياع.

ط - ضربه بعض الصحابة ضرب إيجاع وإهانة، على مرأى من الناس ومسمع!...

ومهرت الفتنة باغتياله في داره وهو يقرأ القرآن. وجاء معاوية ينفخ في بوق الفتنة وهو يريدها مشبوبة الأوار، إلى أن يهدي الله فيبدّل القلوب غير القلوب والعقول غير العقول والضمائر غير الضمائر!

وكان على الإمام علي «ع» أن يعالج قلوباً مرضت، ونفوساً خبثت، وضمائر ماتت! وكفنت باكفان الطمع، ودفنت في مقابر الحقد!...

حكومة الإمام

حكم قوامه العدل، وأساسه الإنسانية، والشجاعة الأدبية!

حكم يشير إليه قول الإمام كرم الله وجهه: «أنصفوا النّاس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم، فإنّهم خزان الرعية... ولا تحبسوا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبه، ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابّة يعتملون عليها، ولا عبداً، ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم!...»

أجل هذا هو المدخل إلى حكومة الإمام علي، فهل قالت العصور على كل ما تقدمت وتطورت ما هو أسمى من هذا؟!

إنصاف للنّاس، صبر على حوائجهم، وكل نظام هو لخدمة الرعيّة، إذن فليست الرعيّة وسيلة للحكم والسيطرة، بل الحكم والحكّام والولاة خدّام للرعية!..

أرأيت أجمل، وأعظم وأنبل من هذه المبادىء؟!

وبعد هذا تصور ما شئت من عدل ورحمة وإنسانية فإنّك لواجد ذلك كله في حكومة الإمام علي.

أقاربه ليسوا مهملين من الرقابة، فليس لهم أن يستأثروا بشيء من أموال الرعية، وليس لهم أن يتعالوا على النّاس، فأقرب النّاس إليه كأبعدهم عنه:

أ - البنت.

ب - الإبن.

ج - والأخ!

ليس لأحدهم أن يستأثر بشيء لا حَقَّ له فيه. والنّاس كلّهم سواسية كأسنان المشط!

لعلّ من حسن حظّ الرعية في عهد الإمام علي، أنّ همّه كان منصرفاً إلى تنظيم البلاد وما يتفق مع مبادىء العدل، فلم يكن هناك تفكير في الدفاع الخارجي، ولا كان هنالك خوف من هجمات خارجية، إنّها الخلافات الداخلية، والإمام علي يريد أن يعالج ذلك كلّه بدستور الإسلام، لكنّ النفوس كان قد أصابها من مرض الطّمع في المال، والحرص على جمعه.

كان قد أصابها الشره إلى الحكم والسيادة، وأخذ الوازع الديني والضمير الإجتماعي يخفت صوتهما في النفوس، وكان لا بد للإمام علي بما عرف عنه من استقامة لا تعرف الإلتواء وصراحة لا تعرف المراوغة أن يواجه التحدي بما يعتقد أنّه الحقّ، وليس يهمه بعد ذلك أن يكون دمه الزكي ثمناً لهذا الحَقّ!...

أجل كانت خلافة الإمام وحكومة الإمام صراعاً بين أُسس العقيدة الدينية، والتطور الإجتماعي المادي!

فوقف الإمام سدّاً في وجه التيّار الجارف الذي يريد أن يقسم النّاس إلى طبقات، وقف يحاسب شريحاً قاضيه، على بنائه داراً بثمانين ديناراً وقد كان عطاؤه أو رزقه أو راتبه خمسمئة درهم!

وليس غريباً على هذا الحاكم الإنساني أن يكون العدل والرحمة والمساواة مجتمعة هي الدعائم الّتي يقوم عليها حكمه، وتبنى عليها حكومته،

لقد لام بعض النّاس الإمام عليّاً في إحراقه الغلاة، ورأوا في ذلك ما يخالف المبدأ الّذي وضعه للحكم، والأساس الّذي سنّه لمعاملة الرعية من الرّحمة، والرأفة والتسامح والصفح!

لكنّ الإمام الّذي كان ينسى نفسه تسامحاً، لم يكن ليتسامح في معاملة قوم جدفوا على الله، ونسبوا إلى الإمام صفات الإلٰهية، وأبوا أن يتراجعوا عن ضلالتهم، ورفضوا أن يتوبوا، وقد استتابهم مرات!.

فلم ير لبدعتهم المبتكرة تلك إلاّ قصاصاً مبتكراً، وهو اجتهاد يجب أن يُقبلَ من الإمام علي، فكل جريمة لها عقوبة نصّ عليها الكتاب الحكيم ولو كانت جريمتهم تنطبق على حكم من أحكام القرآن لما خالف الإمام ذلك!

فليست جريمتهم ردّة، وليست شركاً، وليست كفراً بالتحديد الفقهي للكفر، إنها

تجديف على ذات الله، وقد اتّخذ الإمام وسيلة له، فلم ير الإمام لهذه البدعة الداشنة إلاّ قصاصاً داشناً.

ألم يأمر النبي «ص» بقتل جماعة رجال ونساء ولو كانوا تحت أستار الكعبة لخبثهم وسوء أفعالهم!؟

صحيح أنَّ النّبي «ص» لم يأمر بإحراقهم!

لقد كان ذاك اجتهاداً من اجتهادات الإمام علي كرّم الله وجهه.

فلو كان الأمر إهانة لحقت بشخصه لتسامح بها ولكنّها إهانة، للعزّة الإلٰهية، فيجب أن يكون لها قصاص خاص!

ولقد قال النبي «ص»: «يا أيها النّاس، لا تشكو عليّاً، فوالله إنّه لأُخَيْشِن في ذات الله عزّ وجلّ. وقال «ص»: «علي مخشوشن في ذات الله».

فمن هنا، نرى أنّ الإمام علياً كرّم الله وجهه كان طرازاً خاصّاً في الحكم، ما جاء بعده من حافظ على مثاليّة الدين وصفائه!...

سياسة الإمام

مفتاح سياسة الإمام قوله «ع»:

«لا اداهن في ديني ولا أُعطي الدَنِيّة في أمري!».

«والله ما معاوية بأدهى منّي، وَلكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس!... والله ما استغفل بالمكيدة، ولا استغمز بالشديدة...».

المقصود بالسياسة إدارة الملك وتدبيره، كمايتبادر إلى الذهن من هذا القول في أيامنا!

وعلى هذا الأساس نرى أنّ الفرق واضح بين السياسة والنهج الديني فالسياسة هي معالجة كلّ قضيّة تعرض بما يلائم الأحوال النفسية والإجتماعية والمحلية، فقد تعرض هذه الامور كلّها على الحاكم أن يلبس لكلّ حلّة لبوسها!

أمّا الدين فيستند إلى أحكام مقرّرة لا سبيل إلى تحريفها أو تبديلها.

فقد تتطلب السياسة تقلّباً وغدراً ومخاتلة ومكراً، ويعتبر النّاس السياسي الماهر هو الذي يستطيع أن يواجه كل موقف بما يحتاج إليه من تلوّن ومراوغة!.

أمّا الدين فلا يجيز الإنحراف عما قرّره الدين ولو قيد شعرة، لأنّ للدين حقائقه الّتي لا اختلاف لها، فإذا ساغ لنا أن نجعل للدِّين سياسة، فلا معدى لنا عن أن نعتبر الإخلاص والمهارة في تطبيق أحكام الدين هو النجاح الأعظم وقد كان الإمام أعظم ميزاناً في تطبيق أحكام الدِين، ومن هنا نعلم أنّه كان في تطبيق الشريعة المحمّدية على نفسه وعلى خَاصّة أقاربه وعلى النّاس، فَذّاً من الأفذاذ. وبحق قال «ع»: «ما ترك لي الحقّ من صديق!».

فالرّجل الّذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، الّذي لا يعرف المصانعة ولا يفهم المجاملة، لأنّها ليست له في معجم هو من أسمى السياسة منهجاً ومن أعظمهم أُسلوبا لو لم تكن النفوس قد مرضت، والضمائر قد فسدت فلم يعد يرضيها أن ترى سائساً خشناً في ذات الله، الناس عنده سواسية كأسنان المشط فلا هبات لغير المستحقين، ولا زيادة في عطاء من مال الله ولقد قال «ع» «قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله!».

أجل لقد انتقد المنتقدون سياسة أبي الحسن العظيم، انتقدوه من نقطتين سنبحث عنهما من وجهة النظر السياسيّة البحت.

أ - فقد انتقدوا سياسة الإمام لعدم اقراره معاوية بن أبي سفيان على ولاية الشام إلى أن يبايع، فكان عزله لمعاوية في زعمهم، هو الّذي دعاه إلى رفع راية العصيان! فحارب الإمام «ع»

ب - عزله لقيس بن سعد عن ولاية مصر، وتوليته محمّداً بن أبي بكر مكانه.

يضاف إلى هاتين النقطتين الرئيستين:

١ - قبوله الخلافة في تلك الأحوال القائمة.

٢ - وقبوله التحكيم.

صحيح أنّ المغيرة بن شعبة، وابن عباس، وزياد بن حنظلة، التميمي أشاروا عليه بنقيض ذلك في شأن معاوية وغيره من العمّال، فكان جوابه صريحاً واضحاً: «والله لا اداهن في ديني، ولا أُعطي الدَنِيَّةَ في أمري».

فكان قوله مصداقاً لقول القائل: «إنّي أشعر أنَّ فيَّ قوّةُ عشرات الرجال لأنّ قلبي طاهر!».

ومع هذا فلا بدّ لنا أن نعود قليلا لنفحص الامور النفسية بين بني اميّة وبني هاشم، ونقمة معاوية الشّخصيّة على الإمام علي «ع» لما تقدّم معنا، من أنّ الإمام علياً هو الّذي قتل حنظلة أخا معاوية والوليد خاله وعتبة جده في مقام واحد: يضاف إلى هذا ما كان بين الجبّين: - هاشم واميّة من العداء، من يوم هاشم وامية، وسبق هاشم له في المكارم والفضائل فساد قريشاً وكان أميَّة يحسده، ويعجز عن مجاراته، وينافسه فلا يأتي بشيء فتوارث أولاد امية العداء لأولاد هاشم، فكان

الحسد هو الدافع لبني اميَّة أن يعادوا بني هاشم، فلمّا جاء الإسلام كان بنوا امية وبنوا مخزوم أوّل المناوئين للنبيّ والمكذّبين له، ولعل لهاشميَّة النبي أثراً في تلك المناوأة وذلك التكذيب!

فهل يعقل بعد هذا أن يبايع معاوية الإمام عليّاً بالخلافة، لو أقرّه على ولاية الشام؟

إن الإمام عليّاً كان أبعد نظراً وأحصف رأياً من الّذين أشاروا عليه بإقرار معاوية على ولاية الشام!....

أضف إلى ذلك أنّ معاوية كان قد قضى عشرين عاماً والياً على الشام ولا شك عندنا في أنّه كان قد هيأ الامور للإستقلال في ولايته تلك.

فجمع حوله ذوي الأضغان، والمطامع الحاقدة من قريش على الهاشميين

وقد كان لا بدّ له من أن يهتبل الفرصة في مقتل عثمان لِيبرِز حِقده المدفون! ويحول دون ثبات الإمام علي في الخلافة، لأنّ ثباته في الخلافة يعني افول نجم معاوية!

فلو أنّ الإمام عليّاً أقرّه على ولاية الشام، لكان إقراره إيّاه حجته العظمى على الإمام علي، لأنّ ذلك يكون شهادة حتميّة بنزاهة معاوية، وسيجد معاوية من هذه الشهادة الضمنية منطلقاً يهاجم منه الإمام عليّاً، مضافاً إلى اتهامه الإمام علياً بمقتل عثمان بن عفان. والأدلّة تشير إلى أنّ معاوية كان شبه راض عن اغتيال عثمان ليجد الطريق ممهّداً له ليصل إلى الخلافة. ولو لم يكن الأمر كذلك لما توانى عن السير بجيشه لإنقاذ عثمان المحاصر في داره، ولكنّها المطامع قاتلها الله، يقيناً أنّ الإمام علياً« ع » كان ذروة الحِكْمَة والحنْكَة السياسيّة يوم أمر بعزل معاوية. ولعلّ الإمام علياً أدرى النّاس بما في ضمير معاوية، وبما يطمح إليه معاوية، فمن هنا نرى أنّ الّذين ينتقدون الإمام من أجل عزله معاوية كانوا على خطأ بَيِّن!...

أمّا النقطة الثانية، وهي عزله قيساً بن سعد وتولية محمد بن أبي بكر فيأخذونها عليه، لاعتقادهم أنّ فشل محمد كان ناجماً عن لينه وضعفه! والحقيقة أنّ ضمير الإمام لم يقبل أن يثبّت رجلاً كثرت الأراجيف والتهم حوله، وثبت عنده وهو

القاضي النزيه أنّ رجلاً كثرت الإشاعات حوله، وحامت حوله التّهم والشبهات، لا يجوز في حال أن يظلّ مسؤولاً يمثّل الخليفة.

كان قيس بن سعد بن عبادة: صحابياً جليلاً وهو سيد الخَزْرَجْ ويعدّ من دهاة العرب وامرائها وعُرِفَ باخلاصه لأمير المؤمنين علي عليه السلام وأكبر مناصحيه.

أرسله الإمام عاملاً على مصر فكان مثال العامل المخلص أمّا قِصّة عزله فلو بحثنا عصر الإمام والظروف الّتي أحاطت به لرأينا أنّ من السياسة الحكيمة تنحيته عن مصر ولقد تقبّلها قيس بصدر رحب.

إنّ معاوية حاك الدسائس وأشاع الأكاذيب وبعث الأراجيف حول قيس بن سعد فكان يقول: لا تسبوا قيساً فإنّه لنا شيعة يأتينا بكيس نصيحة سرّاً. ثم زوّر كتاباً على لسان قيس له بالطاعة وجعل يقرأه على أهل الشام. من هذا شاع بين أهل الشام أن قيساً خرج عن طاعة علي - وقيس له مكانته إذ هو صحابي حضر المشاهد كلها مع رسول الله - ثم استفحل الأمر وسرت هذه الإشاعة إلى جيش الإمام وحتى أرجف فيه المرجفون. وجيش العراق يضم عناصر مختلفة وآراء متباينة.

فكان لزاماً على الإمام سياسيّاً - أن يستدعي قيساً إليه ويعزله عن مصر مع علمه بسلامة نيّته.

أما هزيمة محمد بن أبي بكر فلعلّ مراوغة قيس هي الّتي مهّدت لها، وهيأت تربتها!...

ولعلّ إرسال الإمام الأشتر إلى مصر دليل براعة في السياسة لاحد لها، لكن ماذا يصنع الإمام إذا كان جنود العسل قد فتكت بالأشتر وهو في طريقه إلى مصر؟!.

يقيناً أنّ استقدام الإمام لقيس - إن كان قيس يضمر للإمام خيراً، أفضل من إبقائه في مصر!

لكن هي الامور إن أدبرت عادت - كما قال صاحب كليلة ودمنة - عاد سعي الرجل وبالاً عليه.

أمّا قبوله الخلافة فقد كان بالحاح يشبه الإرغام من القوم وقضية التحكيم، لم

يقبلها راضياً، ولا قبل ممثّله أبا موسى الأشعري مختاراً، وليس في هذا شيء من ضعف السياسة وسوء التقدير!

إذن ليست القضية ضعف سياسة، ولا هي سوء تقدير، لكنّه عصر تحوّل وجند فسد، ورواسب جاهلية استيقظت. وأحقاد وترات اموية فارت!

مثل أعلى يصارع المطامع.

أهناك سياسة تتفوق على هذه السياسة؟ ورأي يتميز على هذا الرأي؟.

ألم ينه «عمر بن الخطاب» عن الخروج إلى حرب الروم والفرس بنفسه؟

«إنّك متى تسر إلى هذا العدوّ بنفسك فتلقهم فتنكب، لا تكنْ للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم... ليس بعدك مرجع يرجعون إليه فابعث إليهم رجلاً مجرّباً... فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأُخرى كنت ردءا للنّاس، ومثابة للمسلمين!».

فهل وراء هذا الرأي في السياسة العمليّة والحربيّة رأي؟

ألم يصوّب غير الإمام رأي عمر بالخروج إلى حرب الروم والفرس بنفسه؟ وبيَّن لهم الإمام زيف ما أشاروا به؟.

ألم يعجب «عمر» بالرَّأي الحازم والمشورة الناصحة والسياسة البارعة ويكرر القول وينسِّقه إعجاباً به.

أفليس من السياسة الحكيمة معرفة المسؤول بالرجال؟

فاسمع ما يقول لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير: «لا تلقينّ طلحة، فإنّك إن تلقه تلقه كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعب، ويقول هو الذلول. لكن إلق الزبير فإنّه ألين عريكة فقل له: «يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق... فما عدا ممّا بدا؟».

ومن براعته في سياسة الحكم، أنّه كان يبث عيونه في أنحاء البلاد لينقلوا له ما يجري في البلاد بدقّة، وهو أقصى ما تصفه أرقى الامم سياسة. وليس غرضه من ذلك التجسّس بل معرفة أحوال الناس ليعالج كل خلل في حينه، وبما يستحقّ من العناية.

ومن براعته في السياسة، أنّه كان يعرف نفسيّة الجماهير وعقليّاتها فوصف العامة بكلمة جامعة مانعة: «إنّهم أتباع كل ناعق! هم الّذين إذا اجتمعوا ضرّوا، وإذا تفرّقوا نفعوا!».

مساكين الّذين أنكروا على الإمام علي «ع» حسن السياسة وحصافة التصرّف، لقد كان يدرك بواطن الامور ويعمل على علاج ما مرض منها، وتقويم ما اعوجّ منها مستلهماً أوامر الدّين ونواهيه!.

يجوز أن نتهم إنساناً بالعجز في السياسة، والخطل في الرأي والإدارة إذا كانت تغمّ عليه مسألة، أمّا والإمام مدرك كلّ صغيرة وكبيرة، حتّى ما يجول في ضمائر الناس بدليل قوله: «**إنّ قريشاً اختارت لنفسها، فأبت أن تجمع لبني هاشم بين النبوّة والخلافة!**»

أجل إنّ الإمام لم تفته صغيرة أو كبيرة!

لكن ماذا يستطيع كل مهندسي العالم أن يصنعوه في جبل ينهار؟

لقد كان المجتمع العربي ينهار يتطوّر بسرعة وكان ذلك المهندس العظيم الإمام علي يرى ذلك الجبل يزحف إلى الإنهيار، فلا النصح أفاد ولا الإرشاد نفع فإذا الإمام يلمس موطن الدّاء الذي لا دواء له:

«إنّ النّاس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: -
إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً.... وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم!».

حقّاً إنّ الإمام كان في موقف لا يدع له خياراً: -

أ - امّا أن يسوس البلاد سياسة دينيّة يؤمن بها أشدّ الإيمان ويراها خير السياسات.

ب - وامّا أن يسوسها رياسة ملكيّة دنيويّة تقرّب زمرة من النّاس على حساب العدالة الإجتماعية والاخوة الإنسانية، والمساواة الدينيّة.

فما كان للإمام إلاّ أن يختار الاولى، ولو دفع في سبيل مبادئه دمه الغالي ثمناً وهو متوجّه بقلبه إلى الله، ليقيم الصلاة.

فلقيه ابن ملجم البائس في حياته ومماته، وطعنه تلك الطعنة الّتي أودت بحياته مهراً لقطام التي اشترطت عليه ذلك. وقد خلّد ابن أبي ميّاس الواقعة بقوله:

«ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلافٍ وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المسمّم
فلا مهرَ أغلى من علي وإن علا ولا فتك إلاّ دون فتك ابن ملجم!...»

وخلاصة ما نريد أن نقول: «إنّ الّذين يوجّهون للإمام النقد في سياسته، إمّا جاهلون لشخصيّة الإمام وهم معذورون، وإمّا متناقضون مع نفوسهم ومع الحقيقة، فهم يريدونه إماماً يقيم ما اعوجّ بحكم تطوّر الزمن، ومطامع النّاس، وضغائنهم، وأحقادهم ومنافستهم وتراتهم، ويريدونه في الوقت نفسه مراوغاً يدجّن أوامر الدّين وزواجره على ما يتطلّبه الزمن، ويقتضيه العصر، فما أبعد ذلك عن سجيّة الإمام العادل، والإنسان الفاضل، والفارس المُعَلِّم، والخَطِيب المُلْهم، والأديب المتفوّق!...»

الإمام علي ومشكلة الفقر

ليس بنا من حاجة إلى الخوض في تحديد الفقر قديماً، والتفريق بين منازله، ولا نريد إيضاح الفرق بين الفقير والمسكين، فإنّما غرضنا مُنصَبّ على ما عالج به الإمام الكريم حالة القوم الّذين ساءت أحوالهم المعاشيّة، صحيح أنّ القرآن الكريم جاء بما فيه إصلاح لحالتهم: -

﴿إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾.

فالزكاة أو الصدقة علاج من العلاجات الإجتماعية لمعضلة الفقر الّتي تؤذي النفوس والعقول والمجتمعات الإنسانية.

والحثّ على العمل في القرآن الكريم علاج للفقر.

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾.

﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله...﴾.

فلم يكن الإمام علي ليشذّ عمّا رسمه الكتاب الحكيم، ولكنّه مع هذا اجتهد على ضوء ما جاء في القرآن الحكيم، وصكّ الّذين خلت قلوبهم من الرّحمة واستباحوا ما ليس لهم فيه حق، صكّهم صكّاً عنيفاً بقوله:

أ - «ما جاع فقير، إلاّ بما متّع به غني!».

ب - وما رأيت نعمة موفورة إلاّ وإلى جانبها حق مضيّع!».

هاتان العبارتان صوّرتا مشكلة الفقر بأبشع صورها، فلم يبق إلاّ العلاج، فقد عالجها بما رسمه بنفسه من الإقبال على العمل، إلى درجة مجلت معها يداه وهو يسقي، ولم يترفّع أن يطحن على الرحى بيده الكريمة.

وما اكتنز لنفسه مالاً، ولا أقام لبنة على لبنة.

وكان من الزهد كما قال: «لأروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوما، ولأدعنّ مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها».

فبعد أن عمل ليكون قدوة، وبعد أن زهد حتّى لم يدع مجالاً لما وراء زهده حارب الإحتكار الذي هو من أسباب الفقر: -

«واعلم مع ذلك أنّ في كثير منهم - يعني التجار - ضيقاً فاحشاً، وشحّاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكّماً في البيعات، وذلك باب مضرّة للعامّة، وعيب على الولاة، فامنع من الإحتكار».

ثم تخيّر رجال الحكم من الأُمناء وأهل التجربة وأهل البيوتات الصالحة وذوي الضمائر الحيّة، لأنّ في وجود مثل هؤلاء الرجال ما يضمن العدل، واطمئنان النفوس.

فاسمع ما يوصي به واليه الأشتر: «وتوخّ - الولاة - أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقِدَمِ في الإسلام المتقدّمة، فإنّهم أكرم أخلاقاً، وأصح أعراضاً، وأقلّ في المطامع إسرافاً، وأبلغ في عواقب الأُمور».

وقال: «وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفُروجِ والدّماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمة، ولا الجاهل فيضلّهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم... فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطِّل للسنة فيهلك الأُمة».

ويقول: «ولكنّني آسى أن يلي أمر هذه الأُمّة سفهاؤها وفُجّارها، فيتّخذون مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً!»

أما توزيعه للمال فقد روت كتب التاريخ الموثوق بها أنّه كان يوزّع ما في بيت المال ويكنسه ويصلّي فيه. مساوياً نفسه وأقرب المقرّبين إليه بعامة الناس!

فمن هنا نرى أنّه وضع الأُسس للنّظام العادل، الّذي يقتلع جذور النقمة من نفوس الفقراء، وهذا العلاج النفسي، لم تتمكن أرقى دساتير العالم اليوم من التوصّل إليه، فلقد أشبعت نظمنا العصريّة البطون، لكنّها لم تتمكّن من علاج النفوس الناقمة، والدساتير العصريّة لّما تدرك بعد، أنّه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!

فالنّاس كلّ النّاس تهمهم المساواة أولاً، ويهمّهم أن يروا حاكمهم قدوة لهم، ولا سيّما الأُمم الساميّة عامة والأُمّة العربية خاصة.

أنا لا أقول إنّ الإمام علياً انتزع آفة الفقر من الدنيا، لكنّي أستطيع أن أقول إنّه عالج نفوس الفقراء علاجاً وفّر لهم ما يحتاجون إليه من الإطمئنان الروحي، وهم يرون إمامهم لا يميّز نفسه ولا أحبّ أحبّائه إليه منهم بشيء. ووفّر لهم ما يحتاجون إليه ممّا يقيم أودهم، ويسمو بِهِم عن شظف ما كانت تعانيه الطبقة الفقيرة في الجاهلية من بؤس وحرمان. وما كانت عليه قبل إمامته، ولنا في الآية الكريمة خير دليل على بؤس الفقراء وتدنّي مستوى حياتهم، حتّى ألجأهم فقرهم إلى قتل أولادهم خشية الإملاق:

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم، إنّ قتلهم كان خطئاً كبيرا﴾.

﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النّفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون﴾.

فمن هنا يتبيّن لنا أنّ الأُسلوب الّذي اختطّه الإمام لعلاج النّفوس بادئاً في المساواة بنفسه في عطائه في ملابسه، في مسكنه، في مأكله، في محاربة الإحتكار، في

اختيار الولاة في محاربة الإثْرَاء الفاحش على حساب العامّة، كان له أعظم الأثر في إصلاح المجتمع!

حقّاً إنّه لو لم تعجِّل المؤامرة الجائرة في اغتيال الإمام «ع» لوصل المجتمع إلى حالة من الطمأنية النفسيّة عجيبة!

كيف حورب الإمام علي؟

بدأت محاربة الإمام علي «ع» بالتّشكيك في نزاهته، وبتصويره متآمراً مع المتآمرين على الخليفة عثمان بن عفان. لا بل صوّروه محرِّضاً، وشريكا في الإغتيال، إن لم يكن بيده فبلسانه، وجاء الخوارج يُخَطّئونه لأنّه قبل التحكيم، مع أنّ التحكيم كان بإلحاح منهم، بدليل قوله: «ألم تعلموا أنّي نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أنّ طلب القوم لها مكيدة، وأنبأتكم أنّ القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنّي أعرف بهم منكم؟

قد عرفتهم أطفالاً، وعرفتهم رجالا، فهم شَرُّ رجال وشر أطفال، وهم أهل المكر والغدر، وإنكم إن فارقتموني، ورأيي جانبتم الخير والحزم فعصيتموني وأكرهتموني حتى حَكَّمْت، فلمّا أن فعلت شرطت واستوثقت وأخذت على الحكمَين أن يُحييا ما أحيا القرآن منه، فاخْتَلَفَا وخَالفا حُكم الكتاب والسُنّة وعملا بالهوى، فنفّذنا أمرهما!...»

ولم يكتفوا بالتخطئة بل حاربوه وأخذوا يلعنونه، لأنّه - على زعمهم - ترك حكم الله، وحكَّم الرجال، ولأنّه قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين وما اغتنم أموالهم، ولا سبى ذراريهم ونساءهم!.

وجاء دور بني امية فحاربوه في سمعته كما مرّ بنا، وجعلوا الجوائز الضّخمة والمكافآت الدَسمَة لمن يفتري عليه الكذب، وسحقوا ذريّته في معركة ظهرت فيها وحشيّة الإنسان الحاقد الموتور، بأبشع ما تظهر فيه الوحشيّة، ولم يعفوا عن أبناء بِنْتِ نبيّهم في مأساة الحسين، ولم يتورّعوا عن استعمال السم في اغتيال الحسن!...

وحاربوه حتّى في نسبة بعض خطبه لمعاوية بن أبي سفيان، ولا سيّما الخطبة التي يقول فيها: «أيّها النّاس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود، يعدّ المحسِن فيه مُسيئاً، ويزداد الظالم فيه عتوّاً...» وتستمر الخطبة على هذا النحو، الّذي هو أشبه بِخلقِ الإمام علي، ولحسن الحظ أنّ الجاحظ قد نَبَّه على ذلك وشَكَّ في رواية «شُعَيب بن صفوان» الّذي نسبها إلى «معاوية بن أبي سفيان».

قال السيد الرضي رحمه الله وهذه الخطبة رُبّما نسبها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام أمير المؤمنين الذي لا يُشكّ فيه، وأين الذهب من الرغام والعذب من الاجاج. قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهّاد ومذهب العباد.

وممّا حاربوا به الإمام علياأنّهم جوّعوا كل من أظهر ميلاً للإمام علي، وسنّوا سياسة تجويع الخصوم السياسيين لكل مستبدّ بعدهم، فكانت سنّتهم هذِه أمرَّ من القتل وأقسى، لأنّ القتل يريح المقتول، أما الإفقار والتجويع فَيذلان الإنسان، ويجرّعانه غصص الآلام، فيموت موتاً بطيئاً مراراً في اليوم. وقد أثارت هذه السياسة الغاشمة «الكميت بن زيد الأسدي» المشهور بحبه لاهل البيت:

«فقل لبني اميّة حيث حلّوا وإن خفت المهنّد والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أُجيعا!
بمرضي السياسة هاشميٌّ يكون حيا لأُمته، ربيعا»!...

من أعظم الأدلة على المحاربة الآثمة انّ الإمام لما دفن زوجه فاطمة بنت النبيّ «ص» دفنها في الليل سرّاً، وعفى قبرها، ولم يُعلم موضعه على التحقيق إلى اليوم، فتزار في ثلاثة مواضع، ولم يشهد جنازتها إلاّ علي وولداه، ونفر من بني هاشم، ونفر قليل من الصحابة!.

وهو أمر كما يقول الإمام السيد «محسن الأمين» لا يكاد ينقضي منه العجب!....

أمّا قبر الإمام نفسه فقد جاء في قسم النجف من موسوعة العتبات المقدّسة ما نصّه: «إن أمير المؤمنين - عليه السلام - أمر ابنه الحسن أن يحفر له أربعة

قبور، في أربعة مواضع، في المسجد، وفي الرحبة، وفي الغري، وفي دار جعدة بن هبيرة. إنّما أراد بهذا أن لا يعلم أحد من أعدائه موضع قبره».

فيا للعجب من هذا الحال!...

أجل بمثل هذه الروح المتعفّنة بالحقد الأرعن، والعداء الأزرق عومل ربيب النبيّ وصفيه، وأبو ذريّته، الأمين على عرض النبيّ وشرفه. ولم يبال الّذين تحاملوا على علي حياً وميتاً بما يقوله التاريخ، الذي لا يرحم!...

كان المفترض أنّ فاجعة الحسين تطوي الأحقاد السياسيّة، والخوف من العظمة الّتي واراها القبر، لكنّ النقمة ظلّت تتبع كل من أظهر ميلاً لعلي ولذريّة الإمام علي!

فاعجب لرجل يخافه الخصوم بعد موته، كما كانوا يخافونه وهو حي!..

يخافون قبور أبنائه، فيضع الامويّون على قبر الحسين «ع» المسالح لكي لا يؤم أحد من الزائرين مثواه، ويجعلون القبر مطوّقاً بمخافر تتولّى حراسته حذراً من أن يُزار.

أمّا المتوكّل العباسي فقد بلغه أنّ أهل السواد يجتمعون في أرض نينوى لزيارة قبر الحسين «ع» فأنفذ قائدا من قوّاده، وضم إليه كثفا من الجند كثيراً ليشعث قبر الحسين «ع» ويمنع الناس عن زيارته والإجتماع إلى قبره. فخرج القائد إلى الطفّ وعمل كما أُمر ذلك في سنة سبع وثلاثين ومائتين!..

فثار أهل السواد، واجتمعوا عليه، وقالوا: «لو قتلتنا عن آخرنا لما أمسك من بقي منّا عن زيارته.

وقد اشتهر المتوكّل هذا بالنّصب - وهو ضد التشيّع - وكان يقصد من يبلغه عنه أنّه يتولى عليّاً وأهله بأخذ المال والدم، فأمر سنة ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يحرث ويبذر، ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فذكر أنّ عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية: -

«من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة أيام، بعثنا به إلى المطبق». فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حوله!...

وكان إمام الإمامية في عهده «أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب» قد سعي به إلى المتوكل، فأقدمه من المدينة إلى سامرّاء الّتي كانت تعرف بالعسكر، فلقّب بالعسكري وقد ظلّ مقيماً بها نحو عشرين سنة، ومات بها وجاء سامرّاء لم تنقطع السعايات عنه، فأخبر المتوكل أنّ في منزله سلاحاً، وكتباً وغيرهما من شيعته فرجّه إليه ليلا من هجم عليه في منزله وهو غافل، فوجد في بيت وحده، عليه مدرعة من شعر، ولا بساط في البيت، إلاّ الرمل والحصى، وعلى رأسه ملحفة من صوف، وهو يقرأ ويدعو، فحمِل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه، والمتوكل يشرب، فأجلسه إلى جنبه، وعرض عليه الكأس، فاستعفى فأعفاه، ثم قال أنشدني شعرا، فأنشده:

«باتوا على قلل الأجيال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عزّ عن معاقلهم ... فاودعوا حُفراً يا بئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعدما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل؟
أين الوجوه التي كانت منعّمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل؟
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل!..
قد طالما أكلوا دهرا وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا

وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ... ففارقوا الدّور والأهلين وانتقلوا!..
وطالما كنزوا الأموال وادّخروا ... فخلفوها على الأعداء وارتحلوا!..
أضحت منازلهم قفراً معطّلةً ... وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا!.»

فبكى المتوكل حتى بلّت دموعه لحيته!... ثم أمر برفع الشراب.

أرأيت ماذا يفعل الإخلاص؟

أرأيت كيف يحوّل الإخلاص الصخور ينابيع تتفجّر منها سيول الدموع؟!...

سلسلة متصلة من أعداء الإمام وذريّة الإمام تحملها قلوب حاقدة، وتنفّذها إرادات خائفة مذعورة!

معاملة الإمام علي للسيدة عائشة

موقف من النبل والإنسانية، يصغر دونه كلّ موقف!

أجل يحتاج الإنسان إلى خلق مصفى، وقلب كبير، وإنسانية سمحة، ليتمكّن من الانتصار على حبّ الإنتقام ممّن أساء إليه!

قليلة هي تلك المواقف في التّاريخ من أجل هذا خلّدت وخلّد أصحابها لأنّهم هم ذروة الإنتصار تناسوا كل إساءة وتسامحوا بكل إهانة!

ولو أردنا أن نتّخذ حادثة نتلمّس بها مفتاح شخصيّة الإمام علي «ع» على كثرة الحوادث الفذّة في سجلّ حياته الخالدة، لآثرنا هذه الحادثة بل هذا الموقف من أمّ المؤمنين تحرّض عليه الخصوم، وتسيّر الجيوش معتزّة بمناصرتها، ويوم يُعقر جملها، ويصفى حساب أتباعِها! تتجلّى فيه طبيعة القلب الكبير، والإمام المهذّب والبطل الفذّ، والقائد الملهم، فبعد أن يصكّ أهل البصرة في خطبته المشهورة: -

«كنتم جند المرأة، وأتباع البهيمة، رغا فأُجبتم، وعُقِرَ فهربتم، أخلاقكم رقاق وعهدكم شِقاق، ودينكم نِفاق، وماؤكم زُعاق. المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربّه، كأنّي بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها!».

فبعد مثل هذه الخطبة، يتصوّر الإنسان أنّ كلّ من يقع بين يدي القائد سيكون نصيبه الموت أو الإحتقار على أقلّ تقدير!

لكنّ شيئاً من ذلك لم يكن! بل عفو سام يدلّ على نفس سامية عظيمة واحترام خاصّ لامّ المؤمنين عائشة، إذ سيّرها إلى المدينة المنوّرة في جمهور من نساء عبد القيس عشرين عمّمهنّ بعمائم الرجال، وقلّدهنّ السيوف، فلما كانت في بعض الطريق ذكرته بما لا يجوز، وقالت: «هتك ستري ابن أبي طالب برجاله وجنده الّذين وكّلهم بي!...».

فألقت النساء عمائمهنّ فعلمت أنّ الموكب الّذي يرافقها من النّساء!

فهل بعد هذا النبل غاية؟

ليقل خصوم الإمام بعد ذلك ما شاءوا، وما شاءت لهم أحقادهم، فإنّ هذا الموقف وحده كاف يكذّب الأقاويل والأراجيف، فلقد اتهموا - كاذبين - الإمام بأنّه حقود على من تَقَدّمه من الخلفاء، فلو كان في نفسه أقلّ ظلّ للحقد، لما تسامح مع ام المؤمنين مثل هذا التسامح الكريم، فلم يعرض لها بكلمة نابية بعد أن انهزم عنها الأعوان، وعُقِرَ جملها!

الباب الثالث

النبي "ص" والإمام علي "ع"

سئلت ام المؤمنين عائشة: «أي الناس أحب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم؟

أجابت: « فاطمة!... ».

فقيل لها: « من الرجال؟... »

قالت: « زوجها... ان كان ما علمت صوّاما قوّاما! ».

وروي، أن رسول الله قال وهو آخذ بضبع علي بن أبي طالب: « هذا أمير البررة قاتل الفجرة، منصور من نصره مخذول من خذله ».

ومن الأدلّة على إيثار النبيّ للإمام، أنه لما هاجر إلى المدينة، وبنى مسجده فيها، بنى لنفسه حجرا في جانب المسجد أسكنها أزواجه، وبنى لعلي عليه السلام حجرة بجانب الحجرة التي أسكنها عائشة، وبنى أصحابه بجانب المسجد حجرا اسكنوها، وكانت أبوابها إلى المسجد فأمر النّبي « ص » بسد هذه الأبواب إلاّ باب علي، فقد بقي بابه إلى المسجد، وليس له طريق غيره، وفتح الباقون أبوابا من غير جهة المسجد كانت الحجرة التي تسكنها عائشة الّتي دفن فيها النبيّ « ص » وبيت علي كلاهما في الجانب الشرقي من المسجد، فلمّا زادت بنو امية في المسجد دخلت فيه هذه البيوت.

من الأدلة على حبّ النّبي للإمام حديث الخيمة الّذي رواه الصديق رضي الله عنه، قال: « رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خيّم خيمة، وهو

متكىء على قوس عربية، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين فقال: «معشر المسلمين!... أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، وحرب لمن حاربهم، وليّ لمن والاهم، لا يحبهم، إلاّ سعيد الجِدّ طيّب المولد، ولا يبغضهم إلاّ شقي الجِدّ رديء الولادة».

مالي اعدّد الشواهد على حبّ النّبي لهذا الإنسان العظيم؟!

فلقد قلت فيما تقدم أنّ ائتمانه إيّاه على أحبّ الخلق إليه فاطمة الزهراء عليها السلام أعظم دليل إنساني على أنّه في المنزلة الّتي لا تدانيها منزلة، هذا من الناحية العاطفية المحض، من غير أن نلجأ إلى قيمة الإمام علي الذاتيّة من حيث الرجولة والبطولة، من حيث الشمم والعبقريّة والذكاء، من حيث الجود والسخاء، من حيث الإيثار والغيرية، صفات تقرّب الرجل الّذي يتحلّى بها إلى قلوب الأعداء، فكيف، إذا ظهرت لمن يعرف للنّاس اقدارهم؟ محمّد بن عبد الله «ص»؟!...

كيف لا يحبُّه النَّبيُّ؟ وهو القائل لسعد بن مالك بن الشهيد: «يا سعد بن مالك ابن الشَّهيد، بعض قولك لأخيك عليٍّ؟ فوالله لقد علمت أنَّه جيش في سبيل الله!».

وقوله لبعض الّذين شكوا الإمام علي «ص»: «أيها الناس!.. لا تشكوا عليّاً، فوالله إنّه لجيش في ذات الله....»

لقد حارب النّبي العصبيّة ووأد القبليّة، ولم يكن حبّه للإمام عصبيّة، ولا كان قضية قبليّة، بل كان تقديرا لمزايا تفرّد بها الإمام كرّم الله وجهه، فلو تحلّى بمثل ما تحلّى به أبو الحسن من خصال، رجل من الزنوج لما صمت النبي عن اعلان حبّه، وتحبيبه إلى النّاس!

وبعد فليس عجيبا أن يعرف النّبي «ص» عليّاً «ع» وتجهله العامة، ويتنكّر له المغرضون الحاقدون، فلا يعرف العظيم إلا العظيم، والنفوس جنود مجنّدة فما تشابه منها ائتلف وما تنافر منها اختلف!

ولعلّ في حديث المؤاخاة خير دليل نختم به هذه اللمحة العابرة:

« في السيرة الحلبيّة:- آخى النّبي « ص » قبل الهجرة بين المهاجرين وآخى بين علي ونفسه، وقال أما ترضى أن أكون أخاك؟ »

قال: « بلى يا رسول الله رضيت »

قال: « فانت أخي في الدنيا والآخرة! »

قال صفي الدّين الحلي في ذلك:

انـت سرّ النـبي والصنو وابن الـ ـعمّ والصهر والأ خ المستجـــــاد
لورأى مثلـــك النبي لآخـــــا ه وإلا فسأخطـــأ الإنتقـــاد!..

وقال أبو تمام:

أخوه اذا عـــدّ الفخـــار وصهره فما مثـــــله أخ ولا مثله صهر!.

الإمام وفلسفة الدين

كان للإمام علي فلسفة خاصة نابعة من صفاء فطرته الإنسانيّة، فكأنّما الكون قد بُسط أمامه فيقرأ فيه حقائق الوجود، فترى في بعض خطبه فلسفة عميقة في بساطتها وشمولها لإثبات الخالق عن طريق بحث الوجود. «كائن لاعن حدث، موجود لاعن عدم!»

ونراه في خطب أُخر يثبت وجود البارىء من طريق الموجودات الممكنة وهذا ما جاء بعده المتكلمون للسير على نهجه فيه، فمن أقواله في صفاته تعالى

«الحمد لله الّذي لم يسبق له حال حالا، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً. كل مسمّى بالوحدة غيره قليل وكلّ عزيز غيره ذليل، وكل قويّ غيره ضعيف، وكلّ مالك غيره مملوك. وكل عَالِم غيره متعلّم، وكلّ قادر غيره يقدر ويعجز، وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها، وكلّ بصير غيره يعمى عن خفي الألوان، ولطيف الأجسام، وكلّ ظاهر غيره باطن. وكلّ باطن غيره غير ظاهر. لم يخلقْ ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوّف من عواقب الزمان ولا استعانة على ندّ مشاور ولا شريك مكاثر ولا ضدّ منافر ولكن خلائق مربوبون، وعباد داخرون. لم يحلل في الأشياء فيقال: «هو فيها كائن» ولم ينأ عنها فيقال: «هو بائن!» لم يؤوده خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ما ذرأ ولا وقف به عجز عمّا خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدّر، بل قضاء متقن وعلم مُحكم، وأمر مُبرم، المأمول مع الغمّ، والمرجو مع النعم!»

ونحن إذا تتّبعنا خطبه «ع» نجد فيها أُموراً ما كانت تتهيأ لرجل يعيش في محيط مثل محيطه وزمانه، لولا فطرة صافية خصّه الله بها، فجاء بآراء وفلسفات هي خلاصة تأمّل عميق في الذات الإلٰهية، فجاءت وهي إلهام من الإلهام!...

«الحمد لله الّذي بطن خفيات الأُمور، ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع عن البصير، فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره!»

ومن أقواله في الله جلّ وعلا:

«الأوّل الّذي لم يكن له قبل، فيكون شيء قبله، والآخر الّذي ليس له بعد فيكون شيء بعده والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه.»

ومن أقواله:

«ليس لأوليته ابتداء ولا لأزليّته انقضاء هو الاوّل، ولم يزل. والباقي بلا أجل!.»

وقوله:

«الحمد لله الّذي لا تدركه الشواهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، الدّال على قِدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده.»

وقوله:

«من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله ومن قال كيف فقد استوصفه، ومن قال أين؟ فقد حيّزه!..»

الواقع أننا إذا تقصّينا أقوال الإمام، نرى أنّ له نهجاً خاصاً وفلسفة متميزة في الوجود، عميقة الأغوار فطرية التناول فيها قول الحقّ، وفصل الخطاب، لمن شرح الله صدره، وطهر من وضر العناد قلبه!..

ولصفاء فطرته نراه في التوجّه إلى الله يخاطب الله بصوفيّته كما يخاطب الصّديق صديقه والحبيب حبيبه:

«أتسلّط النّار على وجوه خرّت لعظمتك ساجدة؟ وعلى ألسن نطقت بتوحيدك صادقة؟...» فهذا خطاب بل عتاب حبيب لحبيبه!

إلى أن يقول: قول المعاتب المحتجّ:

«ما هكذا الظنّ بك، ولا أُخبرنا بفضلك عنك يا كريم!»

ثم يعود إلى التوسّل والتضرّع:

« فبعزّتك يا مولاي أُقسم صادقا: «لئن تركتني ناطقاً، لأضجنّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين »

ويقول بما يشبه العتاب:

« هيهات! ما ذلك الظن بك، ولا المعروف من فضلك، ولا مشبه لما عاملت به الموحدين من بِرِّك وإحسانك! »

أرأيت الفلسفة الخاصة أرأيت صدق الإيمان أشاهدت صفاء الفطرة؟ ألاحظت الصوفيّة الّتي جعلت صاحبها يتصوّر الله حبيباً يعاتب، وصديقاً يقبل الإحتجاج؟ ذلك هو الإمام علي، الّذي ظلمته الأقدار لأنّه سبق عصره، أجيالاً عديدة، فجاء ليقيم طوبى ينعم فيها خلق الله بالأُخوّة والعدل والمساواة!

فحاصرته الأحقاد من كل مكان، إلى أن سقط صريعاً في ذات الله بيد جاهلة اشتبهت عليها سبل الحقّ فضلّت ضلالاً بعيدا!..

القائد الملهم

« تالله لو تجسّمت الشجاعة وتمثّلت في شخص، لكان ذلك الشخص هو أمير المؤمنين، بل لو عرفه قدماء اليونان لاتخذوه إلٰهاً للشجاعة في جملة آلِهتهم الّتي عبدوها!

من العجائب أن يجمع الإنسان في نفسه اموراً متباعد بعضها عن بعض فإذا ضمّ بعضها إلى بعض وجدت متممة لصورة رائعة.

هذا الفيلسوف هذا المتصوّف الّذي رأيناه في فصل سابق هو قائد ملهم يجمع في شخصه كل صفات القيادة الرائدة.

لعلّ من أهمّ صفات القائد أن يؤثر الموت مقتولاً، على الموت الطبيعي متقلّباً على فراشه، وقد أشار إلى ذلك يوم صرع في محرابه إذ قال:

« فزت ورب الكعبة! » وقد أشار بذلك إلى الشهادة!...

ومن أقواله في إحدى خطبه: « والّذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بسيف أهون علي من مِيتةٍ على فراش! »

وصفات القائد تسري في تعابيره نفسها، في صور التشابيه الّتي يوردها « أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سفرت أعلامه وقام لواؤه في فتن داستهم أخفافها، ووطئتهم أظلافها وقامت على سنابكها »

حتى مواعظه ترى فيها صور الفروسيّة والقيادة، فالخطايا عنده خيل شمس والتقوى مطايا ذلل:

« ألا وانّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخُلِعَت لجمها فتقحّمت بهم في

النّار، ألا وانّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها، وأُعطوا أَزِمّتها، فأوردتهم الجَنَّة!»

هذه الروح الدافقة بالحيويّة والحماسة تنقل حماستها إلى الجنود، ولعلّ في خطبة الجهاد شاهد على ما نقول:

«أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذلّ واشمله البلاء وألزمه الصغار، وسامه الخَسْف ومنعه النَصَف ألا وإنّي دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً. وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي. فاتّخذتموه وراءكم ظهرياً حتى شُنّت عليكم الغارات!...

وهذا أخو غامد قد بلغت خيله الأنبار وقتل حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها، وقتل منكم رجالاً صالحين، ثم انصرفوا وافرين، ما كُلِمَ رجل منهم فلو أنّ رجلاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان ملوماً، بل كان به عندي جديراً. فواعجبا من جد هؤلاء في باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحا، حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون وتُغزون ولا تَغزون، ويعصى الله وترضون!...

فإذا أمرتكم بالمسير إليهم في أيام الحرّ، قلتم: حمارة القيظ! أمهلنا حتى يسبخ عنا الحرّ، وإذا أمرتكم بالمسير إليهم في الشتاء، قلتم امهلنا حتى ينسلخ عنّا هذا القرّ. فأنتم والله من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال! ويا أحلام الأطفال، وعقول ربات الحجال!...

وددت أنّ الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمة من بينكم وانّي لم أركم، ولم أعرفكم معرفة. والله جرّت وهناً وريتم والله صدري غيظاً، وجرعتموني الموت أنفاسا. وأفسدتم عليَّ رأيي بالعِصيان والخِذلان حتّى قالت قريش: «إنّ ابن أبي طالب شجاع، ولكن لا علم له بالحرب!...

لله أبوهم! وهل منهم أحد أشدّ لها مراسا، وأطول تجربة مني؟!..

لقد مارستها وأنا ابن عشرين، وها أنا ذا قد نيّفت على الستين!... **ولكن لا رأي لمن لا يطاع.**».

ونراه في وقعة الجمل يزحف بنفسه في كتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار، وحوله بنوه، يغوص في عسكر الجمل، حتى طحن العسكر، ثم رجع وقد انحنى سيفه، فأقامه بركبته، فقال له أصحابه وبنوه: «نحن نكفيك!...».

فلم يجب أحداً منهم وظلّ يخط ويزأر زئير الأسد، ثم حمل حملة ثانية وحده فدخل وسطهم يضربهم بالسيف، قدما قدماً، والرجال تفر بين يديه وتنحاز عنه يمنة ويسرة، حتى خضّب الأرض بدماء القتلى، ثم رجع وقد انحنى سيفه، فأقامه بركبته، فاجتمع عليه أصحابه، وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام، فقال: «والله ما اريد بما ترون إلاّ وجه الله والدار الآخرة!» ثم قال لمحمد: «هكذا تصنع يا ابن الحنفية!» فقال الناس: «من الّذي يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين!..».

وفي موقفه من قاتل «سعد بن خيثمة» دليل آخر على براعة القائد الملهم والمحارب الفذّ. يقول الإمام: «إني يومئذ بعدمامتع النهار ونحن والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم، خرجت إثر رجل منهم، فإذا رجل من المشركين على كثيب رمل، وسعد بن خيثمة وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة والمشرك مقنّع في الحديد، وكان فارساً، فاقتحم عن فرسه فعرفني وهو معلم فناداني هلم يا ابن أبي طالب إلى البراز! فعطفت عليه، فانحطّ مقبلاً إلي وكنت رجلا قصيراً فانحططت راجعا لكي ينزل إليّ كرهت أن يعلوني. فقـــال: «يا ابن أبي طالب فررت؟!».

فقلت: قريباً مفرّ ابن الشتراء!» ★فلمّا استقرّت قدماي وثبت اقبل، فلمّا دنا منّي ضربني، فاتّقيت بالدرقة، فوقع سيفه فلحج - أي نشب - فضربته على عاتقه وهو دارع فارتعش ولقد قطّ سيفي درعه، فظننت أنّ سيفي سيقتله، فإذا بريق سيف ورائي، فطأطأت رأسي، ويقع السيف فأظنّ فحف رأسه بالبيضة وهو يقول: «خذها، وأنا ابن عبد المطلب فالتفت من ورائي فإذا هو عمّي حمزة والمقتول «طعمة بن عدي»!

ليس يهمني في هذا المقام من الّذي قتل طعمة، لكنّ المهم عندي هو عنصر البراعة في اتقاء الرجل ثم الإنقضاض عليه، والاسلوب اسلوب فارس مدرّب، وقائد ملهم!

ومن صفات القائد فوق الشجاعة والبراعة، الصراحة، وهل بعد صراحة الإمام صراحة أدبية تعرف وتوصف؟ ومن صفات القائد التسامي وقد ظهر تساميه:

أ - في عفوه عن طلحة يوم كُشِفت عورته.

ب - في عفوه وتساميه عن بسر بن أرطاة يوم كشف سوأته يوم صفين.

ج - في عفوه وتعاليه عن قتل عمرو بن العاص إذ كشف سوأته يوم صفين اتقاء سيف الإمام علي!

فالأسد قد يتحوّل حملاً، إذا رأى الإستسلام والضعف!..

ومن صفات القائد أنّه لا يقيم وزناً للجمهور، ولا يكترث للرأي العام مهما عظمت قوّة هذا الجمهور، لأنّه يعتقد أنّ قوّة الجمهور الّتي يستوي فيها الفارس الشجاع والجبان الرّعديد ليست من البطولة في شيء.

فالقائد يجب أن يكون شديد الإيمان بنفسه، لأنّه من نفسه في جيش، وهكذا كان الإمام علي!...

ومن صفات القائد أن يكون شديد السيطرة على أعصابه، ضابطاً لنفسه. ولقد كان الإمام علي من هذا الطراز الفذّ، وهو يوصي ابنه الحسن بالسيطرة على أعصابه:

«وتجرَّع الغيظ فانّي لم أر جرعة أحلى منها عاقبة، ولا الذَّ منها مغبة!..»

ولنسمع قوله لأخيه عقيل: «لا تحسبنَّ ابن أبيك ولو أسلمه النّاس متضرّعا متخشّعا، ولا مقرّاً بالضيم واهناً، ولا سلِس الزمام للقائد، ولا وطيء الظهر للراكب المتقعّد!»

★ - قال الزمخشري في الفائق هو مثل: - ابن الشتراء رجل كان يصيب الطريق، وكان يأتي الرفقة فيدنو منهم، حتى إذا هموا به نأى قليلا ثم عاودهم حتى يصيب منهم، غرة (آه) فضرب به المثل.

الشيعة

يرى الدكتور « طه حسين » في كتابه « الفتنة الكبرى » أنّه لم يكن للشّيعة معناها المعروف عند الفقهاء والمتكلّمين منذ أيام علي، ويقول إنّ لفظ الشّيعة كان كغيره من الألفاظ، يدلّ على معناه اللغوي الغريب.

ويقول إنّه لا يعرف نصّاً قديماً أضاف لفظ الشّيعة إلى علي، قبل وقوع الفتنة ويقول: « إنّه لم يكن يعلم قبل وقوع الفتنة شيعة ظاهرون ممتازون من غيرهم من الأُمّة. »

وهو يُنكر أن يكون للإمام علي في حياته حزب منظّم، أو شيعة، متميّزة وأنّه لم ينظّم الحزب العلوي، ولم توجد الشّيعة المميّزة إلاّ بعد أن تمّ اجتماع الأمر لمعاوية وبايعه الحسن بن علي

ويضيف الدكتور إلى ذلك شاهداً من القرآن الكريم سورة القصص « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه، فاستغاثة الّذي من شيعته على الّذي من عدوّه، فوكزه موسى فقضى عليه﴾ الآية وقول القرآن الكريم في سورة الصافات ﴿وإنّ من شيعته لإبراهيم﴾

ونرى الإمام الزمخشري في شرحه للآية العاشرة من سورة الحجر ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾ يقول: « في شيع الأولين » فرقهم وطوائفهم والشّيعة الفرقة إذا تفوقوا على مذهب وطريقة.

ويرى الاستاذ « محمد المهدي شمس الدين » في كتابه نظام الحكم والإدارة في الإسلام، بعد تحديده الظاهرة الاولى في مذهب التشيّع أنّها التمسّك بولاء آل

البيت وحبّهم والإنحياز معهم في كل نازلة تنزل وخطب يلمّ، إنّ ظاهرة التشيّع كانت موجودة قبل يوم السقيفة، ويورد مؤيّدا لقوله هذا بعض الأحاديث النبويّة الشريفة منها: «تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين!..»

«وإنّه إذا كان يوم القيامة دعي النّاس باسمائهم وأسماء امهاتهم، سترا من الله عليهم إلا هذا وشيعته فإنّهم يدعون باسمائهم وأسماء آبائهم».

ويقول لعليّ: «إنّك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيّينويقدم عليه أعداؤك غضابا مقمحين».

ويورد حديث الثقلين وهو: «كأنّي قد دعيت فأجبت إنّي تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي، فانظروا كيف تخلفونني، فيهما فإنّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض!..»

فهذه الأحاديث وإن أنكرها الدكتور طه، وطعن في صحّتها، تدلّ على حقيقة، وهي أن الإمام عليا كان أثيراً عند النبيّ جد أثير، فحادثة واحدة تكفي لنعلم مكانة الإمام علي من النبيّ: استخلفه النبي حين هاجر من مكة إلى المدينة، أن يقيم بعده بمكة أياماً حتى يؤدّي عنه أمانته والودائع والوصايا الّتي كانت عند النبيّ، ثم يلحق بأهله ففعل ذلك!»

صحيح أنّ هذه التسمية لم تكن واضحة المعالم محدّدة السمات في عهد النبيّ لكن أبا سعيد الخدري يقول: «ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله إلاّ ببغض علي بن أبي طالب»

لذلك لم يكن يطلق لفظ الشّيعة إلاّ على طائفة من الصحابة، كانوا شديدي الإتّصال بعلي، منهم:

أ - أبو ذر الغفّاري،
ب - سلمان الفارسي،
ج - عمّار بن ياسر،
د - المقداد بن الأسود الكندي
هـ - وحذيفة بن اليمان.

إذن فجذور التشيّع كانت موجودة حتّى في حياة النبيّ، فلمّا بويع الإمام علي بالخلافة برزت الفكرة نضالية وأرست اسسها في واقعة الجمل، وفي معركة صِفّين، وتبلورت ذات نظام فكري في أواخر الدولة الاموية وأوائل الدولة العبّاسيّة وأصبح لها مباحثها العقلية والمنطقيّة وأصبح التشيّع نظاماً إسلاميّاً وفكرة وعقيدة لها فلسفتها وفقهها.

وفي أيام الرشيد صار للمذهب الشيعي مدرسة فكريّة، منهجيّة منظّمة أخرجت للعالم نظام الدولة السياسي على أساس نظام الحكم والإدارة في الإسلام!

وبعامل التراث والأحقاد والضغائن اتهم كلّ منحرف عن الإسلام بكونه شيعيّاً!..

والشّيعة تعترف بثلاث فرق:

أ - الإمامية الإثني عشريّة - وهم الّذين يعتقدون إمامة الأئمة الإثني عشر. ويحصرون أئمتهم في إثني عشر إماماً وهذا أحد الإختلافات المهمّة بينهم وبين طوائف المسلمين. والشيعة الآخرين. ويدعون أيضا الجعفرية

ب - الزيديّة وقد نشأت هذه الفرقة سنة ١٢٢ للهجرة، يوم نهض «زيد بن علي بن الحسين في الكوفة مناهضاً لهشام بن عبد الملك واتّبعه جماعة من أهل الكوفة وخذله بعضهم، فَسُمّي الذين خذلوه «الرافضة»، وعرف الّذين ثبتوا على ولائه بـ «الزيدية» وما يزالون في اليمن.

ج - الإسماعيلية - وينفصلون عن الإمامة في موسى الكاظم فيذهبون إلى إمامة أخيه إسماعيل بن جعفر الصادق

إذن فجذور التشيّع كانت موجودة، لكنّ الامويّين لمّا كانوا عمالاً لأبي بكر ولعمر كانوا يسدّون الأبواب في وجه بني هاشم، ولسبب العداء المتأصّل في نفوس بني اميّة للإمام علي ولشيعته كانوا يبذلون كل ما في وسعهم لاقصاء الإمام علي عن الخلافة لأنّهم كانوا يعتقدون أنّه إذا صارت الخلافة إليه فلن تزول عنه وعن ذريّته من بعده بسبب اللياقة الّتي اتّصف بها الإمام علي وأصحابه ولتعلّق النّاس

به وببيته لما عرفوا به من تقوى وإيمان وشجاعة وإدراك وعقل يميّزون به الأُمور!

ولم يكتف الامويّون بمحاربة الإمام علي وشيعته بل عمدوا إلى استئجار الشعراء والمغنّين والمخنّثين وفي عدادهم عمر بن أبي ربيعة لإشاعة السمعة الفاسدة لمكة وللمدينة المنوّرة عاصمتي الدّين الإسلامي يظهروهما بمظهر المكانين اللّذين لا يليقيان بالزعامة الدينيّة

الإمام علي والخوارج

والله إني لعلى بيّنة من ربّي، ما كذبت ولا كذبت ولا ضللت ولا ضل بي

« الامام علي »

اعرف الحقّ تعرف أهله واعرف الباطل تعرف أهله

« الإمام علي »

أجل لقد كان الإمام علي مؤمنا بحقّه، واثقاً من أمره، ولو شكّ لحظة في حقّه لما قاتل أحداً ولا أراق قطرة من الدّم! فلم يُعرف عنه أنّه وعد ونكث أو عاهد ونقض كما صنع بعض الّذين بايعوه، وكثير من الّذين عاهدوه!

فخلق مصفى ونفس مهذّبة فهل أدل على ذلك من قوله وهو يقلب سيف الزبير الّذي شهر لقتله فيقول والحزن يملأ قلبه: « بشّر قاتل الزبير بالنّار!.. سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم! »

أجل لم يعرف عن الإمام علي أنّه نقض عهداً أو نكث بوعد وقد نقض غيره العهود ونقضوا الوعود، فالهدنة الّتي منحوها « عثمان بن حنيف » داسوها وكادوا يبطشون بالرجل، لولا أنّه ذكرهم بأنّ أخاه سهل بن حنيف هو الّذي يصرّف الامور في المدينة المنورة وإذا علم أنّهم اعتدوا عليه فلا شكّ أنّه سوف ينتقم من أقربائهم هناك، فخلّوا سبيله لكن بعد أن مثّلوا به ونتفوا لحيته مبالغة منهم في تحقيره، فتوجّه إلى علي وقال له بمنتهى المرارة النفسيّة ولكن بشيء من التهكّم: « أرسلتني شيخا فجئتك أمردا! ».

لقد كان هذا العمل الّذي ليس فيه شيء من آداب الرجولة باعثاً على النقمة، مع هذا فلم يكن الإمام علي يريد أن يقاتل القوم إذا كان هناك أي بصيص أمل في الصلح واتفاق الكلمة. لكنّه لم ير أي بصيص من الأمل فكان مضطرّاً أن يلبّي ما دعا إليه القرآن الكريم صراحة!

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا الّتي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله. فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين. إنّما المؤمنون اخوة، فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلّكم تُرحمون »

لقد حاول أن يردّ القوم إلى صوابهم بالجدل والحجّة والمناظرة، وهو في كل ذلك يريد أن يجعل القرآن هو الحكم، لكنّ القوم الذين خرجوا، كانوا يجدون من الإشاعات المغرضة وما يحفزهم إلى الخروج على الإمام علي!

سمع الإمام علي أنّ الخوارج يشيعون الفساد في الأرض، إذ قتلوا « عبد الله ابن خباب بن الارت » وهو من أفاضل الصحابة، وقتلوا نسوة كنّ مع عبد الله، وأشاعوا الذعر في نفوس النّاس، فصمّم أن يسير لمحاربة هؤلاء الخوارج ليطمئنّ رجال الإمام علي إلى أنّ الفساد قد قضي عليه، فلا تضطرب نفوسهم خوفاً على أموالهم وأعراضهم من الخوارج.

فسار الإمام علي ورجاله إلى « النهروان » فلمّا صاروا وجهاً إلى وجه مع الخوارج، طلب منهم الإمام علي قتلة « عبد الله بن خباب بن الارت » وقتلة رسوله إليهم، فكان جوابهم يتّسم بالإصرار على الإجرام والإفساد بعناد: « كلنا هؤلاء القتلة » لم يتسرّع الامام بل وعظهم مشافهة وكتابة فلم يزدادوا إلاّ اصرارا على غيّهم، بزعامة « عبد الله بن وهب الراسبي ». أجل لم يزدد هذا العدد الّذي بقي من الخوارج مع عبد الله إلاّ عنفاً وعناداً، مع هذا لم يبدأهم الإمام بالقتال. إلى أن يقاتلوا، وفيما هو يتريّث ويضبط نفسه إذا هو يسمع هؤلاء الخوارج ينادي مناديهم فيهم: « هل من رائح إلى الجنّة؟ » فيرد عليه كلهم: « الرواح إلى الجنة! » فيهجم

هؤلاء الخوارج على خيل الإمام علي فتنفرج عنهم الخيل مذعورة ثم تعود الخيل إلى روعها وتجول في الميدان ساعة يُسْحَق فيها الخوارج وزعيمهم كأنما قد قال الله بيدوا فبادوا! وكان يهم الإمام علي أن يكون في القتلى ذو الثدية فلمّا بُشِّر الإمام بقتله سجد الإمام عليا هو ومن حوله، ثم رفع رأسه قائلاً: «والله ما كذبت ولا كذبت، ولقد قتلتم شرّ الناس!»

لكنّ إبادة الخوارج زرعت في قلوب عشائرهم الحقد والنقمة.

حديث الغدير

جاء في سيرة أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب ».

« قال المفيد: لما قضى رسول الله « ص » نسكه، وأشرك عليّاً في هديه قفل إلى المدينة وهو معه والمسلمون، حتى انتهى إلى الموضع المعروف « بغدير خم » وكان قريبا من الجحفة بناحية رابغ - وذلك يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة، وليس بموضع إذ ذاك يصلح للنزول، لعدم الماء فيه والمرعى، فنزل في الموضع، ونزل المسلمون معه، وكان سبب نزوله في هذا المكان، نزول القرآن عليه بنصبه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خليفة في الامة من بعده، وقد كان تقدّم الوحي إليه في ذلك من غير توقيت له، فأخره لحضور وقت يأمن فيه الإختلاف منهم عليه، وعلم الله عزّ وجلّ أنّه إن تجاوز غدير خُم انفصل عنه كثير من النّاس إلى بلدانهم وأماكنهم وبواديهم فأراد أن يجمعهم لسماع النصّ على أمير المؤمنين، وتأكيد الحجّة عليهم فيه فأنزل الله عليه: « **يا أيها الرسول بلّغ ما انزل إليك من ربّك** » يعني في استخلاف علي والنص بالإمامة عليه: « **وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصمك من النّاس** ». فأكّد الفرض عليه بذلك وخوّفه من تأخير الأمر فيه وضمن له العصمة، ومنع النّاس منه، فنزل بذلك المكان، ونزل المسلمون حوله، وكان يوماً قائظا شديد الحرّ، فأمر بدوحات هناك، فقم ما تحتها وأمر بجمع الرحال، ووضع بعضها فوق بعض ثم أمر مناديه فنادى في النّاس « الصلاة جامعة » فاجتمعوا من رحالهم، وإنّ أكثرهم ليلفّ رداءه على قدميه من شدة الحرّ، فلمّا اجتمعوا صعد على تلك الرِّحال، حتّى صار في ذروتها وأصعد عليّاً معه حتى قام عن يمينه، ثم خطب النّاس فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ فأبلغ في الموعظة،

ونعى إلى الامة نفسه، وقال: «إنّي قد دعيت، ويوشك أن اجيب، وقد حان مني خفوق من بين أظهركم، وإني مخلّف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض.» ثم نادى بأعلى صوته: «ألست أولى بكم منكم بأنفسكم؟» قالوا: «بلى!».

فقال لهم على النسق وقد أخذ بضبعي أمير المؤمنين عليه السلام فرفعهما، حتّى بان بياض إبطيهما ★ فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهم وآل من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، ثم نزل فصلى ركعتين، ثم زالت الشمس فصلّى بهم صلاة الظهر، وجلس في خيمته وأمر عليّاً أن يجلس في خيمة له بازائه، وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنئوه بالمقام، ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك كلهم. ثم أمر أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممّن معه أن يدخلن عليه، ويسلمن عليه بإمرة المؤمنين ففعلن، وكان فيمن أطنب في تهنئته بالمقام، وأظهر له المسرّة عمر بن الخطاب، وقال له فيما قال بخ بخ لك يا علي! أصبحت مولاي، ومولى كل مؤمن ومؤمنة، واستأذن حسّان بن ثابت رسول الله «ص» ان يقول في ذلك ما يرضاه الله فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم بخم وأسمع بالرسول مناديا!..

وهي ستة أبيات ذكرها المؤلّف في الجزء الثاني من كتابه.

فقال له رسول الله «ص» لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك. وإنّما اشترط في الدعاء له لعلمه بعاقبة أمره في الخلاف. ولو علم سلامته في مستقبل الأحوال لدعا له على الاطلاق. انتهى المراد نقله.

ولما قامت الدولة الفاطمية في الديار المصرية أضفى الفاطميون على عيد الغدير فخامةً وجلالاً، يصغر دونه كل جلال. حتى كانوا يعدّون هذا العيد أعظم

★ «لان كلا منهما كان في ازار ورداء كما هو عادة العرب في ذلك العصر في كثير من حالاتهم، ولا سيما في حر الحجاز، فلما أخذ النبي (ص) بعضدي علي ورفعهما ليراه الناس جميعا ويعرفوه، توكيداً للحجة ومبالغةً في التبليغ، انحسر الرداء عن ابطيهما وبان بياض ابطيهما من تحت الرداء.» - الشرح - للإمام السيد محسن الأمين -

من عيد النحر. وكان اهتمام المعزّ بهذا اليوم كبيراً، حتى أنّه كان يخرج إلى قنطرة المقسّ ويعرض الاسطول ويعوّذه ويباركه ويدعو له.

ونحن لا نتعرّض للخلافات الّتي نشأت بهذا الشأن، لكن مهما ينكر المنكرون فإنّهم لا يستطيعون أن ينفوا حبّ النبيّ لعلي، وإيثاره إيّاه.

ومهما ينكر المنكرون فإنّهم لا يستطيعون ان ينفوا تقديس الشّيعة لهذه الذكرى، وتعظيم الشّيعة لهذه الذكرى له مغزاه!

وإذا رجعنا إلى الأدب نستنطقه نجد فيه مادة خصبة هي سند، لحقيقة هذه الذكرى، ولكونها بقيت حيّة في نفوس الشّيعة في كل عصر وأوان.

ونحن لا نزجّ قلمنا في الخلافات، لكنّ القول المأثور: «لا دخان بلا نار» يميل بنا إلى الأخذ بروايات أهل البيت، وترجيحها على غيرها. ولا سيّما أنّ شعراء الشّيعة قديماً وحديثاً قد أكثروا من تخليد هذه الذكرى!.

قال الكميت بن زيد الأسدي:

«ويوم الدوح دوح غدير خمّ ... أبان له الولاية لو اطيعا
ولكنّ الرجال تبايعوها ... فلم أر مثلها خطراً منيعا

ومما قاله السيد الحميري:

«وأوجب يوما بالغدير ولاءه ... على كل برّ من فصيح وأعجم
لدى دوح خم آخذا بيمينه ... ينادي حبيبا باسمه لم يجمجم
يوافيه بالركبان من كلّ بلدة ... لقد ضلّ يوم الدوح من لم يسلّم

وقال السيد الحميري:

«وبخم إذ قال الاله بعزمة ... قم يا محمد في البرية فاخطب
وانصب أبا حسنٍ لقومك إنّه ... هاد وما بلّغت إن لم تنصب
فدعاه ثم دعاهم فأقامه ... لهم فبين مصدّق ومكذّب
جعل الولاية بعده لمهذّب ... ما كان يجعلها لغير مهذّب!...»

وقال:

«وقام محمّد بغدير خمّ ... فنادى معلناً صوتاً بديّا
ألا من كنت - مولاه فهذا ... له مولى وكان به حفيّا
إلهي عادِ من عادى عليّاً ... وكن لوليّه مولى وليّا!»

وقال ابو تمام حبيب بن أوس الطائي من قصيدة له:

« ويوم الغدير استوضح الحقّ أهله بفيحاء لا فيها حجاب ولا ستر
أقام رسول الله يدعوهم بها ليقربهم عرف ويناًهم نكر
يمد بضبعيه ويعلم أنّه ولي ومولاكم فهل لكم خبر؟

وقال الأمير أبو فراس الحارث بن سعيد الحمداني من قصيدته الشافية:

« قام النّبي بها يوم الغدير لهم والله يشهد والأملاك والأُمم!
تالله ما جهل الأقوام موضعها لكنهم ستروا وجه الّذي علموا!..»
حتّى إذا أصبحت في غير صاحبها باتت تنازعها الذؤبان والرخم!

ونختم هذا الفصل بقول تميم بن المعزّ من قصيدة:

«ليس عباسكم كمثل علي هل تقاس النجوم بالأقمار
من له الفضل والتقدّم في الإسلام والناس شيعة الكفار
من له الصهر والمواساة والنصـ رة والحرب ترتمي بشرار
من رعاه النّبي خدناً، وسمّا ه أخاً في الخفاء والإظهار
من له قال: «انت مني كهارو ن وموسى اكرم به من نجار
ثم يوم «الغدير» ما قد علمتم خصّه دون سائر الحُضّار
من له قال: «لا فتى كعليّ لا ولا منصل سوى ذي الفقار!
وبمن باهل النبي أأنتم؟ جهلاء بواضح الأخبار؟
أبعبد الاله★ أم بحسين وأخيه سلالة الأطهار
يا بني عَمّنا ضللتم وطرتم عن سبيل الإنصاف كل مطار

★ يريد بعبد الإله، عبد الله بن عباس.

صاحب هذه القصيدة هو تميم بن المعزّ لدين الله الفاطمي ابن المنصور بالله بن القائم بأمر الله الفاطمي. ولد سنة ٩٤٧ للميلاد وتوفي سنة ٩٨٥ للميلاد وفي هذا التاريخ خلاف.

(العزيزي)

وقد قال من قصيدة يفتخر على بني العبّاس:

«أقرّوا لنا يا آل عباس بالعلا فلستم لها يا آل عباس أكسبا!»
سبقناكم للدّين، والهجرة الّتي تأخّر عنها جدّكم وتحجّبا
وكنتم بني عمّ النبي محمّد وكنّا بنيه وهو كان لنا أبا
وليس بنو أعمامه في دنّوهم كمثل بنيه، خلطة وتنسّبا
نباجدّكم عن نصره يوم بعثه وجدَّ عليّ جدّنا عنه ما نبا!

ونقف عند هذا الحدّ ولعل فيه الكفاية.

أسرة الإمام علي

تزوّج الإمام علي فاطمة الزهراء، وهي اولى زوجاته، ولم يتزوّج عليها حتى توفّيت عنده، وكان له منها: -

أ - الحسن.

ب - الحسين.

ج - زينب الكبرى.

د - وام كلثوم الكبرى.

★ وبعد وفاة فاطمة الزهراء تزوّج «أمامة» بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس، وامها زينب بنت النبي «ص».

★ ثم تزوج امّ البنين بنت حرام بن دارم الكلابيّة.

★ وتزوج ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلية التميمية الدارجة.

★ وتزوج أسماء بنت عميس الخثعمية، وكانت زوجاً لجعفر بن أبي طالب فقتل عنها، ثم تزوّجها أبو بكر، فتوفي عنها، ثم تزوجها أمير المؤمنين.

★ وتزوّج أُم حبيب بنت ربيعة التغلبية، واسمها الصهباء، من السبي الّذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر.

★ وتزوج خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفية - وقيل خولة بنت أياس -

★ وتزوج أُم سعد أو سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية.
★ وتزوّج مخباة بنت امرىء القيس بن عدي الكلبيّة.

وقد بلغ عدد أبنائه وبناته ثلاثة وثلاثين، وقد تقصى هذه النقطة بالبحث الدقيق الإمام السيد محسن الأمين في كتابه النفيس

وقد خالف الخضري ترتيب زوجاته هذا، وأورد إسم « حرام » حزام ومخباة « محياة ».

مثال في الزهد

ظهر الإمام علي «ع» مثالاً يحتذى في الزهد، ففي أعظم فرحة للرجل - يوم زواجه بمن يحبّ، يهمّه أن يظهر من البذخ منتهاه.

لكنّ الإمام علي الفارس،، كان يشعر أنّ في نفسه كنوزا من العظمة الحقيقية الّتي تغنيه وتغني عروسه الفضلى عن كل بهرجة وتزييف!

فخطبة النبي هذه المناسبة يعدّها الإمام أعظم من كلّ زينة، وأسمى من كلّ بهرجة وزخرفة: «خطبة النبي».

«الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المرهوب من عَذابه، المرغوب إليه فيما عنده، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الّذي خلق الخلق بقدرته، وميّزهم بأحكامه، وأعزّهم بدينه، وأكرمهم بنبيّه «محمد» صلّى الله عليه وسلم.

ثمّ إنّ الله جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، وشج بها الأرحام، وألزمها الأنام، فقال تبارك اسمه وتعالى جدّه «وهو الّذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً، وكان ربك قديراً.★

ثمّ إنّ الله أمرني أن أُزوّج فاطمة من علي وإنّي أشهد أنّي قد زوّجتها إيّاه على أربعمئة مثقال فضة، أرضيت؟».

قالت: «رضيت يا رسول الله». ثم خرَّ ساجدا.

★ سورة الفرقان الآية ال ٥٤.

فقال رسول الله «ص» «بارك عليكما، وبارك فيكما، وأسعدَ جدّكما وجمع بينكما، وأخرج منكما الكثير الطيّب!..».

أمّا خطبة علي عند تزويجه بفاطمة:

«الحمد لله الّذي قرب حامديه، ودنا من سائليه، ووعد الجنة من يتّقيه وأنذر بالنّار من يعصيه، نحمده على قديم إحسانه، وأياديه، حمد من يعلم أنّه خالقه وباريه ومميته ومحييه، وسائله عن مساويه ونستعينه ونستهديه، ونؤمن به ونستكفيه، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادة تبلغه وترضيه، وأنّ محمّداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم تزلفه وتحظيه وترفعه وتصطفيه، وهذا رسول الله «ص» زوجني ابنته فاطمة على خمسمئة درهم، فاسألوه واشهدوا».

قال رسول الله «ص» قد زوّجتك ابنتي فاطمة على ما زوّجك الرحمن. وقد رضيت بما رضي الله، فنعم الختن أنت، ونعم الصاحب أنت، وكفاك برضى الله».

فنرى أنّ الإمام عليا كان مثالا في الزهد، وأنّ عروسه لم تقل عنه، زهدا في الّذي تشره إليه نفس المرأة من الزخارف والزينات في مثل هذه المناسبات!....

وجاء دور الجهاز، فقسّم المهر ثلاثة أثلاث:

أ - ثلث ينفق في الطيب.

ب - ثلث ينفق في الثياب.

ج - وثلث ينفق في أثاث البيت.

فخمار ثمنه أربعة دراهم، وقميص بسبعة دراهم وقطيفة سوداء خيبريّة [١] وسرير مزمل [٢] بشريط [٣] وفراشان من خيش مصر [٤] حشو أحدهما ليف، وحشو الآخر من صوف الغنم. وأربع مرافق من أدم الطائف [٥] حشوها اذخر. [٦] وستر رقيق من صوف وحصير هجري - مصنوع في هجر، وهي قرية بالبحرين - ورحى لليد، ومخضب من نحاس - إناء لغسل الثياب - وسقاء من أدم - قربة صغيرة - وقعب - قدح من خشب للبن، وشن للماء - قربة صغيرة عتيقة لتبريد الماء - ومطهرة - إناء يتطهر به - .

مزفتة وجرَّة خضراء وكيزان خزف، وقطع من أدم [٧] وعباءة قطوانية [٨] وقربة للماء.

فلما وضع ذلك بين يدي النبي « ص » جعل يقلبه بيده ويقول: « اللّهم بارك لأهل البيت. وفي رواية أنّه بكى، وقال: « اللّهم بارك لقوم آنيتهم الخزف ».

ونحن نميل إلى الأخذ بالرواية الثانية لما نعرف من الحنوّ الأبوي الّذي يلامس قلب الأب في مثل هذه الأحوال!...

والنّبي أب فاطمة أحبّ النّاس إليه، فكيف لا تسخو دموعه في هذا الموقف!...

أمّا الإمام علي فجهّز داره بأن نصب خشبة من حائط إلى حائط، وبسط اهاب كبش. ومخدة ليف، وقربة ومنخل ومنشفة وقدح.

هذا هو الإمام علي في يوم عرسه!.

هذا هو أسد الإسلام وقِديسه.

ينظر الدنيا في اليوم الّذي تستهوي فيه النّاس الدنيا، بأنّها هي وكل مجدها وزخارف مجدها باطل وقبض الريح!

وفي هذه اللّحظة الّتي تنسى نفسه، لا ينسى الإمام علي وهو في ميعة شبابه أنّه أعظم من كل زخرف، وأنّ نفسه الكبيرة أكبر من كل متاع زائل وزخرف زائف!

---

(١) هي دثار له خمل.

(٢) ملفوف.

(٣) خوص مفتول.

(٤) هو شاقة الكتان.

(٥) متكآت من الجلد.

(٦) نبات طيب الرائحة - كان الجاني في الجاهلية يصنع منه لراحلته قلادة في السفر فلا يتعرّض له أحد بسوء.

(٧)الادم هو الجلد.

(٨) هي عباءة قصيرة الخمل. معمولة بقطوان موضع في الكوفة.

الإمام المعلم والمؤدّب

ما زال التاريخ يعظّم من شأن «مرقس اوبريلس» من أجل نواحي الإنسانية التي تنطوي عليها نفسه، ولأنّه كان مع دفاعه عن انبراطوريته لم يغفل عن تسجيل خواطره![1].

لكن أين الفيلسوف الروماني هذا من الإمام المعلّم والمؤدّب؟

فكل الحروب والفتن التي واجهت الإمام علبا، لم تصرفه عن تأديب الامة وتعليمها، فقد كان يقيم للناس صلاتهم، ويعظهم ويفقّههم في الدّين وينير لهم طريق الدّين مبيناً لهم ما يحبّ الله من المسلم وما يكره.

كان يجلس لهم في المسجد يحاورهم في امورهم، ويجيب السائلين عن كلّ ما يهمهم من امور دينهم ودنياهم.

كان واعظاً بلسانه، قدوة حسنة بأعماله.

كان يسير في الأسواق يأمر الناس بتقوى الله، وكان ينادي بأعلى صوته: «اتّقوا الله وأوفوا الكيل والميزان، ولا تنفخوا في اللحم».

وكان يستخدم الدرّة في التأديب، إذا رأى من الناس انحرافاً عن جادة الصواب في البيع والشراء! والحديث: كان للسوق آداب عند الإمام علي، فإذا

---

١ – ترجم هذه الخواطر سنة ١٩٣٨ عن الفرنسية السيد (جورج مرار العزيزات) وقدّم لهذه الترجمة مؤلف هذا الكتاب، وقد دعيت هذه الترجمة يومذاك (تأمّلات الفيلسوف لوبريلوس)

(العزيزي)

اعتذر أهل التمدّن الحديث عن تأديب الناس في الأسواق العامة نهضت لهم سيرة الإمام لتؤدّبهم وتعلّمهم أنّ الحكام مسؤولون عن تأديب الرعية.

ولمّا رأى أن الدرّة عجزت عن تأديب المنحرفة نفوسهم، استعمل الخيزرانة لأنّها أشد إيلاماً لمن لا يريد أن يرعوي!

وكثيراً ما قال للنبلاء وللعامّة: «**إنّي لأعرف ما يصلحكم، ولكن، لا اصلحكم، بفساد نفسي!**» (٢)

كان الإمام الفارس البطل، الذي لم يُغلب في مبارزة خصم، مهذّب النفس، إنساني النزعة، مطبوعاً على الحلم والوداعة وسماحة النفس، لذا لم تسمح إنسانيته أن يجلد الناس بالسوط، خشية أن تذهب به الغيرة على حدود الله، والتأديب والتهذيب إلى القسوة!

كان إذا أراد أن يشتري شيئاً بنفسه تحرّى بين السوقة رجلاً لا يعرفه فاشترى منه ما يريد، كراهية أن يحابه البائع إذا عرف أنّه أمير المؤمنين. وهرباً بنفسه عن غرور الإمارة، لأنّه كان يعلم أنّ للسلطة سكرة وإغراء!...

خرج مرة من داره فرأى جمهورا ضخما يزدحم على بابه، فشقّ الجميع، وهو يتلمّس طريقه بينهم بالدرة، حتى انتهى إلى بعض أصحابه فسلّم عليه، ثم قال: «إن هؤلاء ليس فيهم خير، لقد كنت أظنّ أنّ الامراء يظلمون الناس، فقد علمت أنّ الناس يظلمون الأمراء!...».

كان دقيق المحاسبة لنفسه، فكان يقوم بنفسه لإطعام الفقراء طعام العشاء. كان يبحث عن ذوي الحاجة فيغنيهم عن المسألة، لأنّه لم يكن ليرضى لأحد من عباد الله أن يذلّ نفسه لأحد مخلوقات الله!

كان يقسم في الناس كل ما يرد إليه، فإذا قلّ العطاء اعتذر إليهم قائلاً

---

(١) ولعلّ صديقنا الشاعر الملهم (أحمد الصافي النجفي) التفت إلى قول الإمام يوم قال:

ألا تبّاً لمجتمع دنيٍّ ... تكوّن أصله من كل رجس!
أتيت لأنشر الإصلاح فيه ... ولم أُصلحه بل أفسدت نفسي

«إنّ الشيء ليرد علينا فنراه كثيراً، فإذا قسّمناه رأيناه يسيراً!».

هذا الإمام العظيم، يخجل من عطاء القليل، مع أنّه لم يفضّل نفسه في العطاء على أحد من رعيته!..

أجل الإمام المعلّم، عرف بصفاء فطرته أنّ الناس لا يحرصون على شيء حرصهم على المساواة، فكان شديد الإهتمام بهذه الناحية.

جاءته امرأتان تسألانه وتبيّنان له فقرهما، فسدّ لهما حاجتهما، وأمر أن تشترى لهما ثياب، وأطعمة ووهب لهما مالاً. لكنّ واحدة منهما طلبت منه أن يفضلها على رفيقتها لأنّها عربية ورفيقتها من الموالي!..

فأخذ شيئاً من تراب فنظر فيه ثم قال: «ما أعلم أنّ الله فضّل أحداً من الناس على أحد، إلاّ بالطاعة والتقوى!».

كلمة تخشع لها الأرض، وتصغي لها السماء!

أجل إنّها كلمة معلّم عظيم، ومؤدّب كبير!

أجل معلّم، ليس من السهل أن يتغفّله إنسان، معلّم صريح.

إسمع الصراحة، إسمع التهذيب، في كتابه للمنذر بن جارود عامله على إصطخر. يوم عزله عن عمله واستقدمه إلى الكوفة:

«إنّ صلاح أبيك غرّني فيك، وظننت أنّك متّبع هديه وفعله. فإذا أنت فيما رقي إليَّ عنك لا تدع الإنقياد لهواك، وإنْ أزرى ذلك بدينك، ولا تسمح إلى الناصح، وإنْ أخلص النصح لك!..

بلغني أنّك تدع عملك كثيراً وتخرج لاهياً متنزّهاً متصيّداً، وأنّك قد بسطت يدك في مال الله لمن أتاك من أعراب قومك. كأنّه تراث عن أبيك وأُمك، وإنّي لأُقسم بالله لئن كان ذلك حقّاً لجملُ أهلك وشسع نعلك خير منك. وإنّ اللّعب واللهو لا يرضاهما الله وخيانة المسلمين وتضييع أموالهم ممّا يسخط ربّك. ومن كان كذلك فليس بأهل لأن يسدّ به الثغر، ويجبى به الفيء ويؤتمن على مال المسلمين. أقبل حين يصل كتابي هذا إليك!..»

لقد كانت التهمة صادقة عند التحقيق! فليزر العامل الخائن السجن! إلى أن يؤدّي الثلاثين ألف التي احتجنها. ولا يفرج عنه إلاّ بضمان من صعصعة بن

صوحان - الذي كان من أتْقَى أهل الكوفة، ومن أحبّ الناس إلى الإمام علي!... وآثرهم عنده!..

وانظر إلى أخلاق المعلّم المهذّب في كتاب إلى زياد:

أرسل الإمام بعض مواليه إلى زياد يستحثه على حمل ما عنده من المال، ويبدو أنّ هذا المولى بالغ في الإلحاح على زياد فانتهره زياد وزجره. فرجع المولى إلى الإمام وقد تناول زياداً بلسانه. فكتب الإمام إلى زياد مؤدّباً ومعلّماً:

«إنّ سعداً ذكر لي أنّك شتمته ظالماً، وجبهته تجبّراً وتكبّراً. وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الكبرياء والعظمة لله. فمن تكبّر سخط الله عليه.

وأخبرني أنّك مستكثر من الألوان في الطعام، وأنّك تدهن في كل يوم. فماذا عليك لو صمت لله أياما، وتصدقت ببعض ما عندك محتسبا، وأكلت طعامك في مرة مراراً، أو أطعمته فقيرا.

أتطمع وأنت متقلّب في النعيم، تستأثر به على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم، أن يجب لك أجر الصالحين المتصدّقين؟.

وأخبرني أنّك تتكلّم كلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين!...

وإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحبطت. فتب إلى ربّك وأصلح عملك، واقتصد في أمرك، وقدّم الفضل يوم حاجتك إذا كنت من المؤمنين، وادهن غبّاً ولا تدهن رفها. فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «ادهنوا غبّا ولا تدهنوا رفها. والسلام!».

وقد تنصّل زياد ممّا نُسب إليه. استجابة المذعن للتأديب المستجيب للتهذيب والخائف من سطوة الإمام الاخيشن في الله!

«إنَّ سعداً قدم عليَّ فعجّل، فانتهرته وزجرته. وكان أهلاً لأكثر من ذلك. فأمّا ما ذكر من الإسراف في الأموال والتنعّم واتخاذ الطعام، فإن كان صادقاً فأثابه الله ثواب الصادقين، وإن كان كاذباً فلا آمنه الله عقوبة الكاذبين!...

وأمّا قوله: «إنّي أتكلّم بكلام الأبرار، وأُخالف ذلك بالفعل، فإنّي إذاً من الأخسرين عملا.

فخذه بمقام واحد قلت فيه عدلا، ثم خالفت إلى غيره. فإذا أتاك بشهيد عدل، وإلاّ تبيّن كذبه وظلمه!».

والذي يلاحظ ضمنا أنّ زيادا يطلب الإنصاف من ذلك المولى الذي افترى عليه بلا حق!.

كما أنّ المعلّم الموفق يثني على من يستحق الثناء الطيب كان الإمام علي لا يبخل بالثناء الطيّب على من يستحقه.

الإمام علي معلّم عظيم يريد أن يتمنى شخصيّة الفرد ولا يحاول أن يصادر الناس حريتهم الشخصية حتى ولو كانت هذه الحرية موجّهة ضد مصلحة الإمام وسلطته، فالإمام يغضب لله ولا يغضب لنفسه.

لاحظ أنّ الإمام علبالم يحرم الخوارج نصيبهم من الفيء، أي أنّه لم يحاول أن يجوّع خصومه، وتجويع الخصوم من أعظم الأسلحة في يد صاحب السلطة لكنّ الإمام علي لم يلجأ إليه، لأنّه معلّم عظيم!

لم يحل بين أحد وبين الخروج إلى حيث شاء، وهذا أرقى ما وصل إليه العقل البشري من تحرير الضمير، في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان!

ومن أعظم علامات المعلّم العظيم ما ذكره الاستاذ العلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية في مقال له في العرفان الشهيرة:

«وجاء في كتاب الوسائل، وكتاب الجواهر وغيرهما، باب الحدود: «أنّ امرأة أقرّت بالزنا عند الإمام، فأمر مناديه أن ينادي بالناس، ولّما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيّها الناس! إنّي خارج غدا بهذه المرأة لأُقيم عليها الحد، فأعزم عليكم إلاّ خرجتم... ومعكم أحجاركم...

ولما أصبحوا خرج الإمام بالمرأة، وخرج النّاس ومعهم أحجارهم، وحين جاء وقت الرجم ركب الإمام بغلة، ووضع إصبعيه في أذنيه، ونادى بأعلى صوته: -

«أيّها الناس، إنّ الله عهد إلى نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم عهداً عهده إلي، بأن لا يقيم الحد من كان لله عليه حد، فمن كان عليه لله مثل ما على هذه المرأة فلا يقيمن عليها الحد...

فانصرف الناس كلهم إلاّ علي والحسن والحسين!...

أراد أن يعلّم الناس أن لا يوقعوا المرأة في حبائلهم ثم ينصب كلٌّ منهم نفسه حاكما عليها يطلب رجمها أو هو يرجمها فعلا، ناسياً أو متناسياً أنّه أصل الشر، وجرثومة الفساد!..

وهل هنالك تعليم أفضل من أن يقول لك المعلّم:

«اقتدِ بي!».

وقد قال الإمام: «إنّما مثلي مثل السراج في الظلمة، يستضيء به من ولجها!».

ومن أقوال هذا المعلّم العظيم:

«والله لو أُعْطِيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة - أي قشرة شعيرة - ما فعلت. وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها!...».

هذا هو المعلّم المؤدِّب الذي علّم بقدوته قبل أن يعلّم بكلامه!

المُبتكِر العظيم

لعلّ أعظم البراهين على عبقرية إنسان، هو ما يبتكِر من الأعمال، أو الآراء الداشنة التي لم يُسبَقْ إليها.

ونحن إذا تصفّحنا حياة الإمام علي بتجرد علمي، رأينا أنه ابتكر أُموراً لم يُسبقْ إليها. ووثبة تفكيره إلى هذه الأوليات التي تفرّد بها خير دليل على فطرة عبقرية مصفاة:

أ - فالإمام علي أُعجوبة من أعاجيب القضاء، لأنّه أوّل قاض فرّق بين الشهود لئلاّ يتواطأ اثنان منهما على شهادة تشوه جمال الحق، أو تطمس معالمه فسنّ بهذه السُنّة الحميدة البارعة للقضاء، ما يجعل سبيل الحق لهم واضحا وينزّه أحكامهم عن الشبهات. ويحول بين الذين يتلاعبون بضمائر الناس وبين ما طبعوا عليه من الغش، فلا يتمكنون من خداع القاضي.

ب - وهو أوّل من سجّل شهادات الشهود حتّى لا تتبدّل شهادة، باغراء من رشوة، أو تدليس من طمع، أو ميل مع عاطفة، فكان بذلك مبتكرا من أعظم المبتكرين، لأنّ صيانة حقوق الناس من العبث والغش أثمن من حياة الناس نفسها، فجاءت الأجيال والأُمم والحكومات والدول تسير على الأُسلوب الذي رسمه الإمام الأعظم.

ج - والإمام علي هو أوّل من منع بيع ما يحتاج إليه كل ذي مهنة لإقامة مهنته لتسديد ما يترتّب عليه دفعه من مال لبيت المال!

د - وهو أوّل مكتشف أو مبتكر للتّفريق ما بين لبن أُم الأُنثى وأُم الذكر، جاء في الصفحة الـ ٤٦ من كتاب « قبس من حياة أمير المؤمنين عليه السلام » للاستاذ الخطيب جواد شُبَّر ما حرفه: « روى الحاكم النيسابوري: في « كنز العُمّال في السنن والأقوال » جزء ٣ ص ١٧٠ عن شُريح القاضي، قال: كنت أقضي لعمر بن الخطاب، فأتاني يوماً رجل فقال - يا أبا اميّة إنّ رجلاً أودعني امرأتين: - إحداهما حرة مهيره - أي غالية المهر - والجمع مهائر - والاخرى سريّة، فجعلتهما في دار، وأصبحت اليوم وقد ولدتا غلاما وجارية. وكلتاهما تدّعي الغلام، وتنتفي من الجارية، فاقض بينهما بقضائك. قال فلم يحضرني شيء فيهما، فأتيت « عمر » فقصصت عليه القصّة. فقال: « فما قضيت بينهما؟ » قلت: « لو كان عندي قضاؤهما ما أتيتك! » فجمع عمر جميع من حضر من أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمرني فقصصت عليهم فشاورهم في ذلك، فكلّهم ردّ الرأي إليه والي. فقال عمر لكنّي أعرف حيث مفزعها، وأين منزعها، قالوا: « كأنّك أردت ابن أبي طالب ». قال: « نعم، وأين المذهب عنه؟ » قالوا فابعث إليه يأتك! » فقال: « لا، له شمخة من هاشم، وأثرة من علم، يؤتى لها، ولا يأتي، وفي بيته يؤتى الحكَم، فقوموا بنا إليه. فأتينا إليه، فوجدناه في حائط يركل فيه على مسحاة ويقرأ: « أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟ » ويبكي، فأمهلوه حتى سكن، ثم استأذنوا عليه، فخرج إليهم، وعليه قميص قدّ نصف أردانه. فقال: « يا أمير المؤمنين! ما الذي جاء بك؟ فقال: « أمر عرض! »

وأمرني فقصصت عليه. فقال: « فيم حكمت فيها؟ » قلت: « لم يحضرني فيها حكم. » فأخذ بيده من الأرض شيئا ثم قال: « الحكم أهون من هذا! ».

ثم استحضر الإمرأتين، وأحضر قدحا ثم دفعه إلى احداهما فقال: « احلبي فيه» فحلبت، ثم وزن القدح، ودفعه إلى الأُخرى فقال: « احلبي فيه» فحلبت فيه، ثم وزنه، فقال: لصاحبة اللبن الخفيف، إمضي وخذي ابنتك ولصاحبة اللبن الثقيل

خذي إبنك. ثم التفت إلى عمر فقال: «أما علمت أنّ لبن الجارية على النصف من لبن الغلام؟ وأنّ ميراثها نصف ميراثه؟ وأنّ عقلها نصف عقله، وأنّ شهادتها نصف شهادته!».

فقال عمر: «أرادك الحقّ يا أبا الحسن، ولكنّ قومك أبوا...»

هـ - وهنالك من يشير إلى أنّ الإمام عليا كان أوّل من أشار إلى تحرّك الأرض ودليل ذلك ما ورد في خطبته المعروفة بـ «الأشباح» وهي من خطب نهج البلاغة، من الطبعة المصرية م ١٥ ص ١٩٠:

«فلمّا سكن هياج الماء من تحت اكتافها، وحمل شواهق الجبال الشمخ البذخ على أكنافها، فجّر ينابيع العيون من عرانين أُنوفها.

إلى أن قال: «وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها».

وهذا صريح بأنّها تتحرك حركة معتدلة. وفيه إشارة إلى أنّ النبع من الجبال، كما يقوله أهل العصر.

وقال عليه السلام في صفحة ٤٥٤:

فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها.

وهذا كسابقه، لأنّ معناه أنّها مع حركتها سكنت من الميَدان بسبب الجبال ضرورة أنّ «على» هنا بمعنى «مع» كقولنا: «أسهبت في هذا على وضوحه.»

و - ومن ابتكاراته - أنّه أوّل مؤسس لِعِلْمِ النحو العربي، وذلك أنه مرّ برجل يقرأ: «إنّ الله بريء من المشركين ورسولِهِ». بجر رسوله فوضع النحو وألقاه إلى أبي الأسود الدؤلي».

والإمام علي أوّل من قسّم الكلام في اللغة العربية إلى:

أ - اسم - وهو ما انبأ عن مسمى.

ب - والفعل وهو ما أنبأ عن حركة المسمى.

ج - وحرف وهو ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.

وذكر لأبي الأسود:

«إنّ الأشياء ثلاثة:

١ - ظاهر.

٢ - مُضْمَر.

٣ - وشيء ليس بظاهر ولا مضمر.

قال الزجّاج: « قوله «ع» ظاهر مثل - رجل فرس زيدوعمرو» مضمر نحو: أنا ، أنت والتاء في فعلت والياء في غلامي.

أمّا الشيء الذي ليس بظاهر ولا مضمر، فالمبهم نحو:

هذا. هذه. هاتا. تا. من. ما. الذي.أي. كم. متى. واين ». وما أشبه ذلك.

ومن ابتكاراته تنبيهه إلى أُمور من علم الفلك، تجعله عند المحقّقين منمؤسِّسيه إن لم يكن أوّل مؤسّس له .

عظيم سبق عصره

كان « علي » من العلوم في المحل الذي لا تحلّق إليه البشر!

« الشيخ الرئيس ابن سينا »

شهادة معلّم عظيم، وفيلسوف حكيم في معلّم أعظم، سبق عصره، فهم عصره ولم يفهمه عصره. فتألّم! وليس في الحياة ما يؤلم النفس الكبيرة والقلب الطيب أكثر من أن يعيش بين قوم لا يفهمونه!

نحن نكتفي بحادثة واحدة لنتّخذها دليلا على أنّ الإمام عليا كان يعيش في جو خانق من نفوس طغت عليها الماديّة، نفوس عاجزة عن السمو إلى مرتبة الإمام،وكان هذا من أشقّ الأُمور على نفسه.

قال كميل - وكميل من الأبدال، وعى علماً كثيرا.

«أخذ بيدي أمير المؤمنين، فأخرجني إلى الجبانة، فلمّا أصحر تنفّس الصعداء،سجيّة المغموم المكلوم وانفجر عن تلك الكلمات الذهبية، والعقود الدريّة والمعاني العرفانيّة، فقال: « يا كميل! إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها! فاحفظ عنّي ما أقول لك. الناس ثلاثة: -

أ - فعالم ربّاني.

ب - ومتعلّم على سبيل نجاة.

ج - وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق!.

ثم أبان شرف العلم وشرف أهله، وأثر العالم في المجتمع، وامتيازه على المال،

وأنحى باللائمة على من يفضّل المال على العلم. ثم وضع الإمام يده الشريفة على صدره المكرم فقال:

«إنّ ها هنا لعلما جمّا، لو أصبت له حملة!».

أليس هذا القول أعظم دليل على أنّ الإمام عليّاً كان سابقا لعصره، يفهم الناس ولا يفهمه الناس وفي هذا أعظم ما يمضّ النفس ويسحق القلب غمّا!...

ومن أقواله: «اندمجت على مكنون علم، لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطّوى البعيدة!...».

ومن أقواله التي تدل على غربته في ذاك الزمن: «غداً ترون أيامي ويكشف الله عزّ وجلّ عن سرائري».

ولعلّ فيما ترمز إليه الآية الكريمة: «مالي لا أرى الهدهد - لأُعذّبنه عذاباً شديداً، أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين!».

وتفسيرها أعظم إشارة إلى العذاب الذي كان يحسّ به الإمام وهو يعيش بين قوم لا يمكن أن يرتقوا إلى مستوى ما يريده لهم الإمام من مجد وعظمة وعزة عن طريق الخُلقِ الكريم، والعلم العظيم.

قالوا عنى بالعذاب الشديد أن يحبسه مع غير جنسه. وقالوا إنّ سليمان حبسه مع الحدأة في قفص واحد، فلمّا نظر الهدهد إلى كثافة طبعها، ورقة طبعه، وحسن منظره وقبح منظرها، هاله ذلك وطلب من سليمان أن يخرجه من ذلك القفص ويعذّبه أشدّ العذاب. فكل عذاب أهون ممّا هو فيه!...

أجل إنّ ما ترمز إليه الآية الكريمة وتفسيرها، يمكن أن يكون فيه إشارة لما كان يعاني العظيم الذي سبق عصره!

خدمته للإقتصاد العربي

نُقُود الأُمّة هي دليل على استقلال شخصيّتها السياسية والإقتصادية.

وقد كان للإمام علي فضل على الأُمة العربية إذ خدم اقتصادها، كما خدم إبراز شخصيّة الأُمّة في عملتها.

فقد كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر. وهي الدراهم والدنانير، وكانت الدراهم فِضَّة والدنانير ذهباً - غالباً - .

وكانوا يتعاطون نقوداً من النحاس، منها الحبّة والدانق. فكان الدينار قطعة من الذهب وزنها مثقال حفر عليه الملك أو الإنبراطور[1] الذي ضربه أمّا الدرهم، فوزنه درهم من الفضّة. وكانوا يسمّونه الوافي.

ولم تكن قيمة الدينار ثابتة. بل كانت تختلف، من عشرة دراهم إلى ثلاثة عشر، إلى خمسة عشر درهما. وقد تزيد على ذلك، حسب نقاء الدينار من الغش. ويقدّرون الدرهم اليوم بأربعين فلساً أُردنياً أو أربعين فلساً عراقيّاً. ويقدرون الدينار بنصف ليرة فرنسية ذهبا.

وكانت الدراهم الفارسية ثلاثة أنواع:

★ يخطيء الكثيرون في كتابة هذه الكلمة بالميم وصوابها أن تكتب بالنون، لأنّ الميم إذا وقعت بعدها باء مفتوحة قُلِبَتْ نونا، وقد كان العرب الفصحاء يكتبون هذه الكلمة بالنون. رسالة خطّية للأب الكرملي. وفي مقدمة ابن خلدون، الانبراذور.

أ - البِغَلِّيَّة ووزن أحدها مثقال، أو عشرون قيراطا.
ب - الدرهم الذي وزنه إثنا عشر قيراطا.
ج - والدرهم الذي وزنه عشرة قراريط.
١ - وذكر صاحب التمدّن الإسلامي الدراهم السميرية الثقال - وفي الأصل السمرية وهو غلط - وكان وزن الواحد منها ستة مثاقيل.
٢ - الدراهم السميرية الخفاف ووزن الواحد منها خمسة مثاقيل وكلّها فارسية.

أمّا الدنانير فكان العرب يعرفون منها قبل الإسلام صنفين.
١ - الدنانير الهرقلية أو الرومية.
٢ - الدنانير الكسروية أو الفارسية [١].
وكان تعاملهم بالدنانير الروسية والدراهم الفارسية.
وكانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية، وترد عليهم دراهم الفرس البغلية فكانوا لا يتبايعون إلاّ على أنّها تبر. وكان المثقال عندهم معروف الوزن. وزنه إثنان وعشرون قيراطا إلاّ كسرا، ووزن العشرة الدراهم سبعة مثاقيل، فكان الرطل إثني عشرة أوقية. وكل أوقية أربعين درهما، فأقرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذلك، وأقرّه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

« فلمّا جاء الإسلام واحتيج في أداء الزكاة إلى الأمر الوسط، أخذوا عشرين قيراطاً، واثني قيراطا، وعشرة قراريط، فوجدوا ذلك اثنين وأربعين قيراطا. فضربوا على وزن الثلث من ذلك وهو أربعة عشر قيراطا، فوزن الدرهم العربي أربعة عشر قيراطا من قراريط الدينار العزيز، فصار وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وذلك مائة وأربعون قيراطا وزن سبعة.

أجل دفعت الحاجة الإسلام إلى تسهيل معاملات الزكاة بابتكار عملة فضرب بعض الخلفاء عملة على نقش الدراهم الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنّه زاد في

---

(١) - كانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهما، وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً - النقود العربية وعلم النميننا تحقيق الأب أتسناس ماري الكرملي ص ١٠.

بعضها «الحمد لله» وفي بعضها «محمّد رسول الله» وفي بعضها «لاإله إلاّ الله وحده» لكنّها لم تكن مميّزة عن النقد الفارسي في شيء إلاّ بهذه الكلمات، وتوالى ضرب النقود لكنّه لم يكن للعرب والمسلمين نقد خاص بهم إلى ان جاء الإمام علي فجعل لهم نقداً خاصّاً متميّزاً كما أشار إلى ذلك الخطيب المفوّه الاستاذ جواد شبّر في كتابه «قبس من حياة أمير المؤمنين عليه السلام». نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية. (٢)

وقد أتمّ عمل الإمام علي الخليفة الأُموي الخامس عبد الملك بن مروان بإشارة من محمد بن علي بن الحسين المعروف بمحمد الباقر. وذلك لما هدد ملك الروم عبد الملك بأن يضرب نقوداً يذكر فيها النبي بما يكره المسلمون، فعظم ذلك على عبد الملك واستشار الناس فأشار عليه (الباقر) بانجاز العمل الذي كان الإمام علي قد بدأه.

أجل أشار الناس على عبد الملك أن يفزع إلى محمد بن علي بن الحسين المعروف بالباقر. أحد الأئمة الإثني عشر من الشيعة★ فلم يشأ أن يستنجد أحد أئمة بني هاشم وهم مناظروه في الملك، لكنّه لم ير بدّاً من استقدامه فكتب إلى عامله في المدينة أن: «أشخص إليّ محمّد بن علي بن الحسين مكرّماً ومتّعه بمائة ألف درهم لجهازه، وبثلاثين ألفاً لنفقته وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه». فلمّا قدم محمد إلى دمشق استشاره عبد الملك في ما ينويه ملك الروم من الإساءة إلى الإسلام فقال محمّد: «لا يعظم هذا عليك. ادع هذه الساعة صنّاعاً فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد، وذكر رسول الله «ص» أحدهما في وجه الدرهم أو الدينار والآخر في الوجه الثاني وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه، والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير وتعمد إلى وزن ثلاثين درهما عددا من

---

(٣) - ضرب هذه النقود الخليفة عمر بن الخطاب. - النقود العربية وعلم النمينا تحقيق العلامة الكرملي ص ٣٢/٣١.

★ - هو أول علوي ولد بين علويين، وأوّل من اجتمعت له ولادة الحسن والحسين.

الأصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل، وعشرة منها وزن ستة مثاقيل، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل، فتكون أوزانها جميعا أحدا وعشرين مثقالا فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة مثاقيل، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل».

ففعل ذلك عبد الملك وبعث بنقوده إلى جميع بلدان الإسلام وتقدم إلى الناس في التعامل بها، وهدّد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها، وأن تبطل تلك وتردّ إلى مواضع العمل، حتى تعاد إلى السكة الإسلامية».

فخدمة الإمام علي للإقتصاد العربي وللكرامة العربية وللشخصية الإسلامية، لا تقوَّم بثمن. وليس بخاف ما في النقد الخاص بأُمّة من تسهيل معاملاتها التجارية، وما فيه من عناصر التوفير في الوقت، وما فيه من عناصر الإعتزاز فعلى الرغم من أنّ الإمام عليا لم يعلق قلبه بالمال أصلاً ولا اكترث للثروة الشخصية إلاّ أنّه في تفكيره العبقري يفضّل السكة الإسلامية عن التبعية الفارسية والتبعية الرومية كان سابقاً لعصره سبقاً يعدّ بالقرون والأجيال، لا بالشهور والأعوام.

فلقد نزع نهائياً من عقول العرب والمسلمين تعظيم الفرس وتعظيم الروم فبعد أن كان بعض العرب البدو في أوائل الفتح الإسلامي لا يفرّق بين الفضة والذهب من حيث القيمة ولا بين الملح والكافور(٣) كان لهم الإمام علي معلّما ومؤدّباً كما مر بنا بيان ذلك.

ولعلّ في ضرب جوهر القائد الدينار المعزّي فيه إشارة إلى أوليّة الإمام علي من حيث الإهتمام بالنقد العربي، ليس مجرد تعظيم للإمام علي. فقد نقش على أحد وجهيه ثلاثة أسطر:

أ - أحدها: «دعى الإمام المعزّ لتوحيد الأحد الصمد».

★ - الفخري والمنهل ج ١.

ب - وتحته سطر فيه «ضُرِبَ هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة».

وفي الوجه الآخر:

ج - لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون.

علي أفضل الوصيّين وزير خير المرسلين.

الإمام عدوّ للسفاهة

أجل كان الإمام مطبوعاً على الخُلقِ الكريم المصفى. لذا كان يعد السفاهة لا تليق بأتباعه، فحاربها في القول والعمل.

كان بطلاً وكان مهذّباً وكان معلّما، فلم يرض أن يسمع كلمة نابية.

وكان دستوره في حياته الآية الكريمة: «قل لا تسئلون عمّا أجرمنا، ولا نُسئل عما تعملون...»

إن أراد توجيه لوم أو عتاب.

شتم حجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي أهل الشام في صِفّين، فأرسل إليهما علي طالبا منهما أن يكفّا عما يجب أن يترفّع عنه الرجل الكريم. فأقبل الرجلان وقالا: «ألسنا محقين يا أمير المؤمنين؟

قال: «بلى!؟...»

قالا: «أو ليسوا مبطلين!؟...»

قال: «بلى!».

قالا: «أجل لِمَ منعتنا عن شتمهم؟!...»

قال: «كَرِهْتُ لكم أن تكونوا سبّابين لعّانين. فلو وصفتم مساوي أعمالهم وقلتم كان من سيرتهم كذا وكذا، لكان أصوب في القول وأبلغ في العذر.

فهو لا يريد أن يكون بين رجاله وأنصاره من يألف لسانه البذاءة والشتم!....

فكان جواب الرجلين للإمام:

«نتأدّب بآدابك يا أمير المؤمنين!»

أجل يريد الإمام أن يحافظ على نقاء الخُلق العربي الأصيل، فليس يؤذي الإمام كالغوغائية في كل موقف.

جاء الإمام رجل يقول: «إنّ فلاناً ما زال يشتمك: ويقول فيك كيت وكيت».

قال «ع»: يا هذا! نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك. وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك، أقلناك!...»

قال الرجل حين سمع هذا: «أقلني يا أمير المؤمنين».

فهذه النفس الكبيرة نفس الإمام علي تكره السفاهة، تحتقر البذاءة والسعاية، لأنّها تأنف أن ترى الصّغَارَ والحقارة فيمن له علاقة بالإمام المعلّم والمؤدّب.

الإمام يحتقر سفاهة العمل، ويعد استرضاء طبقة الخاصّة بظلم العامة سفاهة في العمل ويترفّع عنها ويأباها:

عرض عليه رهط من شيعته أن يفرّق الأموال في الرؤساء والأشراف ليضمن ولاءهم، فكان جوابه: «أتأمرونني - ويحكم - أن أطلب النصر بالظلم والجور فيمن وُلّيت عليه من أهل الإسلام؟

لا والله لا يكون ذلك، ما سمر السمير، وما رؤيت في السماء نجمة، والله لو كان أموالكم ملكي، لسويت بينهم، فكيف وإنما هي أموالكم؟..»

أفبعد هذا نعجب إذا كان كل عظيم يعشق الإمام عليّاً، ويرى فيه أسرار العظمة؟

فقد قال عامر بن عبد الله بن الزبير لولده: «يا بني، إنّ بني مروان ما زالوا يشتمون عليّاً ستين سنة، فلم يزده الله إلاّ رفعة. وإنّ الدين لم يبن شيئا فهدمته الدنيا وإنّ الدنيا لم تبنِ شيئا إلاّ عادت على ما بنت فهدمته!...»

وقال الخليل بن أحمد: «إحتياج الكلّ إليه، واستغناؤه عن الكل دليل على أنّه إمام الكلّ!».

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما عَلِمْنَا أحداً من هذه الأُمّة بعد رسول الله أزهد من علي بن أبي طالب، ما وضع لبنة على لبنة. ولا قصبة على قصبة».

وقال الإمام الشافعي: «ما أقول في رجل أخفت أعداؤه فضائله حسداً وأخفت أولياؤه فضائله خوفاً، وقد شاع ما بين ذين ما ملأ الخافقين!».

أمّا الجاحظ فلِشدَّة تعظيمه للإمام علي يثور على الأُمويين ويصفهم بأنّهم كانوا في طريق التمرّد على الله، والإستخفاف بالدّين والتهاون بالمسلمين والإبتذال لأهل الحق.

أما توماس كارليل فإنَّه يقول:

«أمّا علي، فلا يسعنا إلاّ أن نحبّه ونعشقه، فإنَّه فتىً كبير النفس، جليل القدر، يفيض وجدانه رحمة وبرّاً ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة.

وكان أشجع من ليث، ولكنّها شجاعة ممزوجة برقّة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى!... «انتهى المراد نقله».

ماذا نقول في رجل كان يقول - وما عرف عنه الإدعاء ولا عرف الغرور «سلوني قبل أن تفقدوني فأنا أعلم بطرق السماء مني بطرق الأرض!..»

يقينا أنّه لا يجرؤ أحد أن يقول هذا القول مالم يكن عالما يدري أنّه يدري. وقد كان الإمام علي عالما بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معان عميقة.

وقد جاء متواتراً عن النبي قوله:

«قسمت الحكمة على عشرة أجزاء، فأُعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً» جاء في موسوعة أعيان الشيعة ما معناه.

أما علوم الدين الإسلامي فعنه أخذ الناس علم التفسير، وعلوم القرآن وقد أملى كتابا فيه ستون نوعاً من أنواع علوم القرآن وذكر لكل نوع مثالاً يخصه، وانّه الأصل لكل من كتب في أنواع علوم القرآن.

رأيه في أصناف المتعبدين

إن للإمام رأيا فذّاً في العبادة وفي أصناف المتعبّدين، فهو يرى أنّ العبادة يجب أن تكون مُهَذِّبَةً للضَّمير، مقوّمة للخلق الإنساني، وهو يكره أن يكون الدِّين تجارة، أو مقايضة أو مجرد انتساب إلى الدّين!..

فإذا كانت اللحظات الأخيرة من حياة الإنسان تلخّص حياته وتكشف أعمق ما يخفي عن الناس من أسرار شخصية فهاكم ما يلخّص لنا شخصيّة الإمام الأعظم.

يُحمل من المحراب ودمه يفيض، ولسانه يسبح الله...

يأتونه بالجاني البائس ابن ملجم، فيتوجه إليه بهذا العتاب الرقيق تماما كما يخاطب الأب البرّ ابنه العاق..

ألم أُحسن إليك؟!..

ألم أُوثرك؟!

ثم يلتفت إلى ابنه الحسن ويقول:

«إرفق بأسيرك يا ولدي وارحمه. وأحسن إليه، فإنّا أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلاّ كرما وعفوا!...

بحقّي عليك أطعمه ممّا تأكل، واسقه مما تشرب، لا تقيّد له قدما، ولا تغلّ له يدا!...».

ثم يلتفت إلى أهل بيته وسائر شيعته فيقول: «لا ألفينكم يا بني عبد المطلب تخوضون دماء المسلمين خوضا، تقولون: - قتل أمير المؤمنين. لا يُقتلَنَّ بي إلاّ قاتلي!» انظروا إذا أنامتّ من ضربته هذه فاضربوه ضربة! وإن تعفوا أقرب

للتقوى. ولا يمثّل بالرجل فإنّي سمعت رسول الله يقول: «إياكم والمثلة ولو كان بالكلب العقور!»

وهكذا تنطفىء حياة العظيم وهو يدعو إلى الإنسانية والتسامح وهو نفسه الضحية! مات وابتسامة الرضى تشع من شفتيه فليست طعنة ابن ملجم بالطعنة الأُولى وإن كانت الأخيرة أليس هو القائل: «لقد استلذذت العفو حتى ظننت أن الله لا يؤجرني عليه!».

أجل أبا الحسن لقد لخصت كل ما فيك من نبل وإنسانية وبطولة نفسية وأنت تواجه ربّك في أواخر لحظات حياتك! ليس ابن ملجم أوّل ناكر لجميلك كافر بنعمتك جاحد لأياديك!... فما أكثرهم!..

ألم يقم الإسلام على ساعديك؟!

بلى لقد كنت فذاً جاء لقوم لم يفهموه فتنكّروا له وأنكروه!.

لقد كنت زاهداً تخفي زهدك!

ألست القائل صادقاً: «فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طِمرا، ولا حزت من أرضها شبرا!

بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما اظلته السماء فشحّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين».

ألست المتسامي في روحانيّتك يوم تقول:

«إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار!...

وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد!...

وانّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العباده! وقد كانت عبادتك من هذا الطراز الرفيع وليس أدلّ على ذلك من قولك في مناجاة الله:

«ما عبدتك خوفاً من نارك. ولا طمعاً في جنتك، ولكن رأيتك أهلا للعبادة فعبدتك!..

هذا هو أعلى مراتب التصوّف، وهذا سبيل كبار المتصوّفين، الذي اختططته لهم ومهّدته أمامهم!.

نفس أكبر من الدنيا وأسمى من المطامع

« ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا! »

هذا قول من أقوال - « الإمام علي » وهو صورة لعظمته النفسية!

يقينا أن هذين البيتين التاليين من الشعر يصوران تلك النفس العالية أدق تصوير، كأنَّ الذي قالهما رسم لنا صورة للنفس التي هي أكبر من الدنيا، وأسمى من المطامع:

« عليَّ ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهنّ أكثرا!
ولي نفس حرٌّ لو تقاس بمثلها نفوس الورى، كانت أجلّ وأكبرا

أليس هو القائل: « إنّما كنت جاراً قد جاوركم بدني أياما! »...

وهذا دليل على أنه كان يشعر بعمق أنّه من طينة غير طينة هؤلاء الذين لصقت بالمادة نفوسهم!

سئل في بعض حروبه: « إذا جالت الخُيل، أين نطلبك؟! »

قال: « حيث تركتموني، فإنّي لا أفر. ولا أتبع فاراً ».

وذكر أنَّ درعه كانت لا ظهر لها، فقالوا: « إنّا نخاف عليك أن تؤتى من قبل ظهرك!

فقال: إذا أمكنت عدوي من ظهري، فلا أبقى الله عليه، إن أبقى علي! »

فهذه نفس كان الشاعر قد وصفها بقوله:

وإنّي لمن قوم كأنّ نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما(١)

إنه يعرف قدر نفسه:

«أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب وكسرت نواجم القرون ربيعة ومضر!»

بنا اهتديتم في الظلماء وتسنّمتم العلياء، وبنا انفجرتم عن السرار!..

أقمت لكم سنن الحقّ في جوار المضلة حيث تلتقون ولا دليل، وتُحتقرون ولا تميهون!...»

إنّ الرجل الذي يجرؤ على قول الحقّ لأكبر من الدنيا. وقد قال الإمام:

«ما ترك لي قول الحقّ من صديق!..»

فالذي يريد الدنيا يراوغ، وينافق، وقد قلنا يوماً إنّ الحياة، الحقّ أصعب من الموت. فقد تحتاج الحياة من الذين يريدون الدنيا أن يسكتوا عن قول الحقّ، والإمام علي لم يكن من هذا الطراز.

لقد كان همه ما ينفع الناس لأنّه كان يؤمن بذلك ايمانه بحقيقة خالدة:

«... فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال.»

ولهذا كان أكبر من الدنيا، وأسمى من المطامع. وقد زالت عن الناس دنياهم، وهلكت مطامعهم، وبقي ذكر الإمام خالدا، تنحني له الجباه وتعظّمه الشفاه!

★ - البيت للمتنبي في رثاء جدته لأُمّه. وقد قال الواحدي: لو أنه قال كأنّ نفوسهم لكان أوجه لاعادة الضمير على لفظ الغيبة. لكنه قال: «كأن نفوسنا لأنّهم هم القوم الذين عناهم، ولأنّ هذا أمدح.

الباب الرابع

المجدّد العبقري

الذي ينظر في حياة الإمام علي:

في زهده في تقشّفه، في تواضعه إلى حد أنّه يخصف نعله بيده ويطحن على الرحى. في بطولته، في عبادته إلى درجة أنّه من أجل المحافظة على ورده يبسط له نَطع بين الصفين ليلة الهريرِ فيصلّي عليه ورده والسهام تقع بين يديه وتمر على صماخيه يمينا وشمالاً فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من ورده على ما يروي ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة.

يتعجّب، لا بل يتولاّه شيء من الحيرة يشبه الذهول، إذا رأى أنّه إمام مجدّد عبقري، لأنّه يؤمن بتطور الحياة، وأنّه ما عدا الحقائق الدينية الخالدة لا شيء فيها ثابت.

أ - فهو مجدّد في نظرته إلى العمل، فبعد أن كان العربي يترفّع عن العمل اليدوي ترى الإمام عليّاً يعمل بيده ليرفع من قيمة العمل، ويرفع من قيمة العامل.

ب - مجدّد في كونه يسنُّ للناس آدابا للحرب، فبعد أن كان من مفاخر رجال الحرب أن يسلكوا بمن يظفرون ويمثّلون، سنَّ الإمام للحرب آدابا، فيوم طرد جيوش معاوية عن الماء لم يرد أن يمتهم من الظمأ فسنَّ بذلك لوناً من آداب الحرب والفروسية لا تعرفه الحرب!

ج - جدّد في السياسة فبعد أن كان الناس يظنون أنّ السياسة هي الختل والمراوغة جعلها براعة في تطبيق الأحكام الدينية، والمثل الإنسانية الرفيعة العليا.

د - ولعلّ أعظم أدلة العبقرية والتجديد، نقله العاصمة من الجزيرة العربية إلى العراق فكأنّما هو قد نقل العرب من العقيلة التقليدية إلى عقلية متطوّرة تألف التجديد ولا تعكس التّطور الذي هو سنة الحياة.

فإذا كان الباحثون الإجتماعيون قد عدّوا نقل أتاتورك عاصمة بلاده من القسطنطينية ذات التقاليد العريقة، إلى أنقرة، البلدة المطبوعة بالطابع القروي أجل إذا كان هؤلاء القوم عدوّا هذه الخطوة لزعيم الترك العثمانيين عبقرية في التجديد، فإنّ عبقرية أتاتورك تتضاءل أمام عبقرية الإمام. هذا ثار على تقاليد أمثلية وحضارية وأراد أن يحطمها بردَّة إلى الرِّيف. وكان في عمله هذا براعة لا شك فيها، فما يذكر أحد أنقرة إلا ذكر أتاتورك لأنّه هو موجدها. أمّا الإمام علي فقد نقل القوم من فكرة قبلية ضيقة أقل أخطارها أنّها تهدد روح الإسلام الذي جاء ثورة على القبلية الضيِّقة: «وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون!..».

فالذي صنعه الإمام كان تجديداً عبقريّاً، لا بل انقلاباً في العقلية في المجتمع، في كل أسباب الحياة، وهذا أقصى ما يصل إليه الزعيم، من تطوير عقلية قومه.

ولعلّ أعظم ما يتحتّم على الزعيم الموفق، أن يدفع أُمّته إلى الرقي والتقدم، مجدداً في أساليب حياتها، فلا يسمح لها بالتخلّف والجمود ولا سيّما في ذلك العصر الذي لم يكن العالم فيه مرتبطا بالمواصلات التي تسهل التطور على الناس شاءوا أم أبوا.

لم تكن فوائد هذا التجديد العبقري مقصورة على البلاد التي تولى حكمها الإمام الأعظم، بل أفاد من عبقريته خصومه السياسيون. فقد أصبح من السهل على معاوية أن يتّخذ من دمشق عاصمة له ويرسي فيها حكمه. جدد في أُسلوب الخطابة، فبعد أن كانت الخطب مجموعة من الحِكَم لا رابطة بينها تشبه القصيدة الجاهلية التي لا وحدة فيها لا في موضوعها ولا في تلاحم أجزائها، كانت خطبه تنبع من قلب كبير وعاطفة صادقة تنبض بالحيوية والصدق والإخلاص، وبما أنّها نابعة من قلب مخلص كانت تخاطب القلب والضمير بأُسلوب يرقى ذي جمل قصار، ويشتمل على كل ما يجب أن تشتمل عليه الخطب الناجحة من تكرار عبارات القسم والتوكيد، والأمر والنهي والإستفهام، فتشعر وأنت تقرأها بعد

هذه المئـين من السنين أنّ جوّاً من السحر يسيطر على نفسك فيمتد بك الخيال إلى أولئك الذين كانوا يسمعون تلك الكلمات الحية، وتعجب كيف كانوا يستطيعون أن ينطلقوا من أمرها إن لم يكن الله قد ضرب على عقولهم وقلوبهم غشاوة: « فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا. ». فكان لهم قلوب عمي، ولهم عيون لا يبصرون بها، وآذان صمت عن كلمة الحق! فلا تسمعها، وإن سمعتها فلا تعيها!.

هـ - جدّد في أُسلوبه التصويري البارع، فإذا تكلّم على الجاهلية توهمت أنّ ريشة رسام تخط أمامك الصور واضحة جليّـة.

و - مجدّد في ابتكاراته العلمية التي تدل على أنّه سابق لزمانه وقد تعرض لهذه الناحية - معالي الحاج عبد المحسن شلاش - في الليلة السابعة من أُسبوع الإمام بمحاضراته النفيسة المعنونة بـ « خلود الإمام » فلتراجع. في الصفحة ١٧٦ - ٢١٧.

روح الدُّعابة ودلالتها النفسية

«لله أنت لولا دعابة فيك!...»

«عمر بن الخطاب»

في العظماء ناحية بكر يجهلها الناس. يظل العظيم يتمتع ببراءة الأطفال وبراءة الأطفال هذه هي التي تجعل من العظيم نسخة متفردة في محيطه، بل في الدنيا.

هذه البراءة هي التي توحي إليه بعبقرية البطولة، بعبقرية التجديد، وبعبقرية العبادة. بوثبات الخيال والذكاء الخارقة.

فبطولة الإمام ما عرف التاريخ لها مثيلا.

بطولة التجديد التي لا تعرف الجمود، ولا تَقرّ بالتحجّر الذهني، بطولة العبادة إلى درجة أنّ المعارك الحربية لا تحول بينه وبين مناجاة خالقه مناجاة المُحِبّ. والصديق الواثق بمن يحب.

قال أبو الدرداء: «سمعت - الإمام عليّاً - يناجي ربه في غسق الليل ثم انفجر بالبكاء، وخفي صوته، فلم أسمع له حسّاً ولا حركة، فقلت: - غلب عليه النوم، أُوقظه لصلاة الفجر فأتيته وإذا هو كالخشبة الملقاة، حرّكته فلم يتحرّك، زويته فلم ينزو، فقلت: - مات والله علي بن أبي طالب؛ فأقبلت مبادرا إلى منزله أنعاه إلى أهله فأخبرتهم فقالوا: - هذه الغشية التي تأخذه كل يوم من خشية الله،» وأقبلوا إليه وصبوا الماء على وجهه، أفاق ونظر إلي وأنا أبكي، فقال: -

«كيف بك يا أبا الدرداء لو نظرت إلي وقد دعي بي إلى الحساب، وقد أيقن

أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ، وزبانية فظاظ،؟!..» لكنت أشدّ رحمة لي بين يدي الجَبّار الذي لا تخفى عليه خافية

وقال الشريف الرضي في مقدمة نهج البلاغة - والكلام هنا على الإمام علي «ع» «ومن عجائبه التي انفرد بها وأمن المشاركة فيها، أنّ كلامه الوارد في الزهد والموعظة والتذكير والزواجر، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه النظر، وخلع من قلبه أنّه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنّه كلام من لاحظ له غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة. وقد قبع في كسر بيت، أو انقطع في سفح جبل، لا يسمع إلاّ حسَّه، ولا يرى إلاّ نفسه، ولا يكاد يوقن بأنَّه كلام من ينغمس في الحرب مصلتا سيفه، فيقطّ الرقاب ويجدّل الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجا، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال. وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد،وألّف بين الأشتات، وكثيرا ما أُذكر الإخوان بها وأستخرج عجبهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة فيها.

أمّا هذه الدعابة التي أخذت عليه حجة عند العامة، فهي عبقرية العظماء وفطرة الأديب التي هي من مميزات الأديب الحق، وليست طعنا في مقومات الشخصية الفذة، وإن دلت الدعابة على شيء فإنما هي دليل على سماحة النفس وسخائها فالمعروف عن الشجعان غالبا أن يكونوا بخلاء. فقد كان عبد الله بن الزبير شجاعا وكان أبخل الناس، وكان الزبير أبوه شجاعا، وكان شحيحا، وكان طلحة شحيحا شجاعا. وكان عبد الملك بن مروان شجاعاً وكان شحيحا يضرب به المثل في الشح وسمي رشح الحجر لبخله. وكان الإمام علي مثال السماحة والكرم بشهادة الدّ أشهر أعدائه «معاوية» يوم قال لـ «محفن بن أبي محفن الضبيّ» يوم اتهم عليّاً بالبخل والجبن والعي.

«أعلي كان أبخل الناس؟...».

والله لو كان لعلي بيت من تبن وبيت من تبر لأنفق تبره قبل تبنه!..

أعلي كان أجبن الناس؟

وهل وقف في الحروب دون رسول الله غير علي، وهل كانت وقعة بدر إلاّ لعلي؟ وهل كانت وقعة أُحد إلاّ لعلي؟

أعلي كان أعيى الناس؟ وهل سنَّ الفصاحة لقريش غير علي!؟
فتلك الدعابة كانت دليلا على موهبة الأديب، وعلى السماحة والكرم!
كان ڤولتير من أعظم أُدباء فرنسا، وكانت الدعابة لا تفارقه.
وكان برناردشو أعظم من عرفت بريطانيا من الكتاب في عصرنا.
وكان أبرع ما عرف عنه تلك الدعابة الفذة.

وكان ڤولتير العرب الجاحظ فذا في أُدباء العربية وكانت الدعابة عنصراً أساسيا فيه.

فهل يعاب أمير الأدب الإمام علي أنّ فيه دعابة تشير إلى أسمى مراتب المواهب الأدبية، وتشير إلى السماحة والجود والكرم.

يغضي حياء ويغضى من مهابته فلا يكلَّم إلاّ حين يبتسم!

إنّ طلاقة الوجه صفة من صفات الإنسان الطيّب.
فكيف تصبح في علي بن أبي طالب سبَّة؟!...
أجل طلاقة الوجه هي إشراقة الضمير، الدعابة الحلوة هي صفة القلب الكبير.
جاء في « عبقرية عمر » للعقاد قال:

استأذن « عمر » على النبي يوما وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهنّ، فلمّا استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب.

فدخل والنبي يضحك!..
قال عمر: « أضحك الله سِنَّك يا رسول الله... كأنه يسأله عن سبب ضحكه.
فقال عليه السلام: « عجبت من هؤلاء اللاتي كنّ عندي لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. »

قال عمر: « فأنت يا رسول الله أحقّ أن يهبن. ثم التفت إليهنَّ يقول أي عدوات أنفسهنَّ!... أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ »
قلن: « نعم، أنت أغلظ وأفظّ من رسول الله!.. ».

إنّ الدعابة دليل على نفس خيّرة، فما أدري لماذا تعاب على الإمام علي؟
« روت السيدة عائشة رضي الله عنها أنها طبخت له عليه السلام - النبي حريرة ودعت سورة أن تأكل منها، فأبت، فعزمت عليها لتأكلن، أو لتلطخن

وجهها. فلم تأكل، فوضعت يدها في الحريرة ولطختها بها، وضحك النبي عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها: - «لطّخي أنت وجهها ففعلت!» رواها العقاد.

يا سبحان الله!.. حتى النبي الكريم يمزح ويضحك ويقبل المزاح والدعابة.

أمّا علي بن أبي طالب فدعابته محسوبة عليه. وطلاقة وجهه منتقدة.

إنّ العصر الحديث وعلم النفس الحديث حكما بأنّ طلاقة الوجه تدل على انطلاق الروح وصفاء القلب!

فتحية لدعابة ابن أبي طالب التي تدل على قلب كبير، وموهبة أدبية ممتازة ونفس تسامت فوق كل منغّصات الحياة!

وأراد عمرو بن العاص الإنتقاص من الإمام فأشاع بين أهل الشام أنّ عليّاً فيه دعابة فبلغ ذلك الإمام عليه السلام فقال:

عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دعابة، وأنّي امرؤ تلعابة أُعافس وأُمارس، لقد قال باطلاً ونطق إثماً، أما وشر القول الكذب إنّه ليقول فيكذب ويعد فيخلف ويُسأل فيلحف.

اما والله إنّه ليمنعني من اللّعب ذكر الموت، وإنّه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة.

الإمام عدو الجمود والحرفية

الإمام علي لا يعالج المشكلات بالمواعظ والخطب!
آلت إليه الخلافة وقد أصبح المجتمع منقسما فعلاً إلى طبقتين:
أ - طبقة غنية مترفة.
ب - وطبقة بائسة فقيرة.

والإمام إنسان بالفطرة، أديب بالطبيعة، يعلم أنّ الإنسان الجائع المرغم على الجوع، لا يرى الله - كما يقول غاندي - من خلال معدته الجائعة.

الإمام يدرك أعمق الإدراك أنّ الإنسان الذي فرض عليه الجوع لا يمكن أن يكون ذا فضيلة ولو وعظته الأنبياء، وزجرته الملائكة!

الإنسان الذي فرض عليه الفقر والجوع، مخلوق سلِبت منه إنسانيته وذلّ، والإمام عدو للذل ألم يقل الإمام:

« الذليل عندي عزيز، حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه ».

إمام عدو للفقر، يستعيذ بالله منه، ويطلب من الناس أن يستعيذوا بالله منه، ويصفه بأشنع الأوصاف:

« الفقر يخرس الفَطِن عن حجته! ».
« الفقر هو الموت الأكبر ».

قال لابنه محمد بن الحنفية:

« يا بني، أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإنّ الفقر منقصة للدين مدهشة للعقل داعية للمقت ».

كان يتوجه إلى الله أن يحميه من الفقر!

« اللّهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار فأسترزق طالبي رزقك، واستعطف شرار خلقك، وأُبتلى بحمد من أعطاني، وافتتن بذم من منعني، وأنت وراء ذلك كله ولي العطاء والمنع. إنّك على كل شيء قدير.

فالإمام ليس من الجامدين الذين يقولون إنّ الفقر نعمة. هو يرى فيه بؤسا وذلاً اجتماعياً. ويرى في الغنى مجداً اجتماعياً.

« الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة!... »

« ألا وإنّ من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب! » ألا وان من البلاء الفاقة وأشدّ من الفاقة مرض البدن، وأشدّ من مرض البدن مرض القلب!.

إمام يعلم أنّ النبي بشر الفقراء من امته بالجنة على شرط، أن يكون أحصرهم الجهاد عن الكسب. يعلم أنّ الآية الكريمة لم تثن على الفقر من حيث هو فقر، ولكنها خصته في حالة معينة: ﴿للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله، لا يستطيعون ضرباً في الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً، وما تنفقوا من خير فإنّ الله به عليم﴾.

لو كان الإمام من الجامدين الحرفيين يعد الفقر نعمة، ولم يتنكر له ولم يحاربه ولم يعالج مشكلته لما تقدم معنا. في بحثنا « الإمام ومشكلة الفقر! ».

أجل لقد كان الإمام عدوا للجمود والحرفية، وقد رأينا من اجتهاداته ما أقره عليه النبي، ورأينا من اجتهاداته ما هو منسجم مع روح الكتاب بعيد عن الجمود والحرفية.

أ - في قضية الزانية التي أوجب على من يريد رجمها أن لا يكون مطالباً بحد من حدود الله.

ب - في قضية الرجل الذي فجر وهو بعيد عن أهله، فأوجب عليه الحد لا الرجم!

ج - في قضية العطشى! التي كادت ترجم لو لم يتداركها الله بالإمام

د - في قضية المجنونة! التي انتزعها من أيدي الموكلين باقامة الحد عليها.

كان يرى في الدين صداقة لله تعالى، فالمؤمن فرح وكذا كان الإمام علي الذي عيب عليه فرحه في الله.

لقد كان يأتم بابن عمه «ص» الذي كان يقول لقومه:

«لا تحدثوني عن أصحابي شيئا، فإني أُحبّ أن أخرج إليكم وأنا منشرح الصدر!.

كان إلى فطرته الإنسانية، الخيّرة شديد التأثّر بأخلاق ابن عمه:

جاء أعرابي إلى النبي «ص» يسأله حظه من الفيء وأخذ مكاناً في الصف وكان النبي يوزع على الناس، وبعد أن أتمّ التوزيع، اندفع الأعرابي نحوه بخشونة وغلظة، وجذبه من جماع ثوبه وهو يقول:

«يا محمّد! زدني!... فإنّ المال مال الله، وليس مال أبيك...».

ابتسم الرسول «ص» في غبطة، ورضى عظيم... وقال وهو يهز رأسه:

«صدقت يا أعرابي!.. المال مال الله..».

امتعض عمر بن الخطاب وقال: «دعني يا رسول الله أضرب عنقه!»

ازداد وجه الرسول إشراقاً، وازدادت ابتسامته تألّقاً وقال:

«دعه يا عمر! فإنّ لصاحب الحقّ مقالا!».

بمثل هذه الروح كان الإمام علي يواجه الأُمور. كان خشنا في ذات الله ولكنّه لم يعرف الجمود عند الحروف والكلمات.

من أجل هذا خسر الإسلام باغتيال الإمام علي شيئاً كثيراً كان في استطاعته أن يهبه للإسلام لو امتدت به الأيام!.

روح علي!.

ابتسامة علي.

رجولة علي.

فهمه للدين ولروح الدين تجعل عليّاً خالداً!

رجل فذ ومنظم ممتاز

إذا قرأنا ما أثبت الشريف الرضي من عهد الإمام للأشتر رأينا رجلاً فذّاً، ومنظّماً ممتازاً، لا تفوته مشكلة من مشاكل المجتمع الذي يعيش فيه ولا يدع مشكلة بلا حل.

١ - مشكلة اختيار الحاكم - القاضي - .
٢ - مشكلة اختيار القائد وسياسة الجيش.
٣ - مشكلة طبقات الشعب.
٤ - مشكلة الفلاحين.
٥ - مشكلة العمال.
٦ - مشكلة التجار.
٧ - مشكلة ذوي الدخل المحدود والمرضى والزمنى.

فإذا كان خريجوا الجامعات الدين يناط بهم حل مشكلة واحدة من هذه المشاكل يفشلون على كثرة أعوانهم ومساعديهم فإنّ الرجل الفذّ، والمنظّم الممتاز، بسط كل هذه المحيرات ونظر إليها من جميع زواياها ووصف لها الدواء الصحيح.

والإمام أوّل من عد القضاء والحكم والولاية أمانة وكأنّما هو يذكر كل مسؤول بالآية الكريمة: ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنّه كان ظلوماً جهولا﴾. سورة الأحزاب الآية ٧١.

وانطلاقا من الآية الكريمة يقرر للمسؤول في شخص الأشتر ما يلي: «إنّ عملك ليس لك بِطعمة، ولكنه في عنقك أمانة!»

أما المسؤول فيجب أن يُختبر قبل أن يُولّى:

«ثم انظر في أُمور عمالك فولّهم اختباراً، ولا تولّهم محاباة وأثره، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة . ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك .

وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنّهم أكرم أخلاقا، وأصحّ أعراضا، وأقلّ في المطامع إسرافاً. وأبلغ في عواقب الأُمور نظرا».

أُنظر إلى الحكمة في اختيار الرجال. فهو يريدهم من الذين نبتوا في بيوت تأصلت فيها الأخلاق الكريمة. ونحن نلاحظ أُمّة الانكليز لا تولي مناصب القضاء إلاّ لأبناء البيوتات المشهورة في أصالتها، لأنّ الذي نشأ نشأة فاضلة - إذا كان عاقلاً - يخجل من نفسه أن ينحدر إلى مستوى لا يليق بأصله وتربيته العالية.

الإمام يريد أن يكون المسؤول مصداقا لقول الشاعر:

« عليك منك إذا أخليت مرتقب لم تأت في السرّ، مالم تات إعلانا!»

ذكر «سلامه موسى» الكاتب المصري المشهور - وهو من أكثر الكُتّاب والمفكرين نقمة على الإستعمار الانكليزي - ذكر أنّ اللورد «كرومير» CROMER أفلين بارينغ - عميد انكلترا في مصر كان ينفق في سبيل تثبيت أقدام الإستعمار البريطاني نحو اثني عشر مليوناً من الجنيهات سنويّاً، لا يقدّم لأُمته بها حساباً، وأنّه كان يعيش في حياته الخاصة بتقشّف يشبه تقشف الزاهدين المخلصين مع هذا فإنّه اضطر قبل سفره أن يطلب من أهله اجور سفره برقياً.

فكأنّ الإمام كان يريد أن يكون كل مسؤول في عهده نموذجاً حيّاً لمكارم الأخلاق.

وكما أوجب أن يكون للمسؤول حصانة تقيه عبث العابثين، من ذوي النفوذ، أو ممن هم فوقه. وأوجب أن تكون أرزاقهم كافية كيلا تشره نفوسهم إلى طمع أو رشوة: «ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإنّ ذلك قوّة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحُجّة عليهم إن خالفوك، أو ثلموا أمانتك».

أجل كما أوجب لهم ذلك، فرض عليهم الرقابة والتفتيش، ولعلّه أوّل من صنع ذلك، فأصبح عمله سنة في مراقبة المسؤولين:

«ثم تفقّد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإنّ تعاهدك في السرّ لامورهم، حدوة لهم على استعمال الأمانة، والرفق بالرعيّة. وتحفّظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهداً. فبسطت عليه العقوبة في بدنه. وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلّة ووسمته بالخيانة وقلّدته عار التهمة».

هذا النموذج الفذّ في أصالة الرأي يؤيده أيضا قوله:

«ثم أكثر تعاهد قضائه، وافسح له في البذل ما يزيل علّته وتقلّ معه حاجته إلى الناس».

بعد أن رسم لنا هذه الصورة النموذجية للحاكم والقاضي تناول القائد:

«فولٍّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأتقاهم جيباً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطىء عند الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممّن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف».

وبعد أن يذكر صفات القائد وما يجب أن يكون عليه من الشجاعة والصبر على المكاره والسماحة والسخاء، والحلم والنجدة. والمروءة، ليكون قدوة لجنوده يوصي بما لم يسبقه إليه في السياسة سابق:

«ثم تفقّد امورهم، ما يتفقد الوالدان من ولدهما... وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم فإنّ كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاعة، وتحرّض الناكل إن شاء الله!».

أرأيت أبرع من الإمام في علم النفس العملي؟

«ثم اعرف لكل امرىء منهم ما أبلى، ولا تضيفنّ بلاء امرىء إلى غيره ولا تقصّرن به دون غاية بلائه!».

«ولا يدعونك شرف امرىء إلى أن تعظّم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً».

الإمام العظيم يخشى على الرجل المحارب أن يكون موزّع النفس، خائفاً على أهله من غائلة الجوع فاسمع ما يقول:

« وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همّهم همّاً واحداً في جهاد العدو ».

ثم يتقدم الإمام من طبقات الشعب ليحلّ مشكلة كل طبقة بما يضمن لها الحياة الكريمة، ويساعدها على الإستمرار في خدمة المجتمع الإنساني، فالتفت أوّل ما التفت إلى الفلاحين. الفلاحة التي كانت في زمانه دعامة المجتمع لأنّ اعتماد الحياة العامة كان على الفلاحة، فإذا أُصيبت طبقة الفلاّحين بشلل شلّ المجتمع بأسره.

فاسمع ما يقول الرجل الفذّ، والمنظّم الممتاز:

« وتفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإنّ في إصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سِواهم، ولا صلاح لمن سِواهم إلاّ بهم لأنّ الناس كُلّهم عيال على أهل الخراج وأهله - وأهل الخراج هم الفلاّحون - .

ويوصي بهذه الطبقة التي لا يعرف التاريخ أشدّ منها بؤساً وكدحاً، ولا أشدّ منها إيماناً وثقة بالله، لأنّها بعد كل أتعابها تكل أمرها لله، لأنّها عاجزة عن التحكم في عناصر الطبيعة التي لها بعد الله القول الفصل في الخصب والمحل. فهو يُوصي بهذه الطبقة خيراً ويحذّره من خراب الأرض الذي هو نتيجة طبيعية لإعواز أهلها. لأنّ خراب الأرض دمار للمجتمع.

« وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها. وإنّما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء، وقلّة انتفاعهم بالعِبَر.

أمّا طبقة العمال، فلم يحوجها الرجل الفذّ، والمنظّم الممتاز، بل نداء الإنسانية العادل. إلى ثورة ولا إلى اعتصاب، ولا إلى تعرّض أبنائها للسجون لتنال حقوقها أو بعض حقوقها. بل سنّ لها تشريعاً إنسانياً في منتهى الروعة لأنّه أوجب للعامل حقّاً لا يذلّه ولا يحطّم نفسه فأنشأ الإمام بيتا سماه « بيت القصص » يلقي الناس فيهم رقاعهم.

« ففرّغ لاولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرتفع إليك امورهم.

ويتلفّت بعد ذلك إلى التجّار وذوي الصناعات فيوصي بهم خيرا:

«ثم استوصِ بالتجّار وذوي الصناعات، وأوص بهم خيرا، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفّق ببدنه فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح، في بَرِّك وبحرك، وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها، فإنّهم سلم لا تخاف بائقته، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقّد امورهم بحضرتك، وفي مواشي بلادك»

لاحظ هذه الدقّة - فإنّهم سلم لا تخاف بائقته - هي نظرة الفطرة الصافية التي لا تخون صاحبها: إنّها الحكمة الطبيعية، فالتجار الذين لا يطمحون إلى السلطة لا يريدون أن يتعكّر الأمن، هم عون للسلطة ما دامت السلطة لا تمدّ يدها إلى أموالهم بالإستصفاء والإختلاس.

عجيب أمر هذا الإنسان العظيم، إنّه يدرك عقلية كل طبقة من طبقات المجتمع، يغوص في وجدان كل فئة غوص المتخصّص البارع، فلو أنّنا جمعنا حشداً من ذوي الإختصاص أن يضعوا لنا برامج كل في دائرة اختصاصه، لما جاءونا بمثل ما جاءنا به الإمام:

«تجاوزتَ مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم: «أنت بالغيب عالم!»

ما أليق هذا القول فيك أبا الحسن! رحم الله المتنبّي لو رآك ساعة لما ذكر ممدوحه هذا!..

أمّا ذوي الدخل المحدود والمرضى والزمنى فلا نعرف من اهتمّ بهم مِنَ المسؤولين قبل الإمام، فاسمع صرخته المدوّية من أجلهم، التي تدل على أنّ الإمام كان يقظة للضمير الإنساني:

«ثم، الله! الله!.. في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم مِنَ المساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى والزمنى، فإنّ في هذه الطبقة قانعا ومعترّا. واحفظ الله ما استحفظك من حقّه فيهم، واجعل لهم قسماً مِن بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدني، وكل قد استرعيت حقّه. ولا يشغلنك عنهم بطر فإنّك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همّك عنهم ولا تصعِّر خدك لهم.

انظر إلى الخُلق الإنساني الرفيع! الإمام لا يطلب لهؤلاء الناس سد الحاجة الجسيمة وحدها، بل يوجب الإهتمام بهم، الإهتمام الذي يشعرهم بأنّهم يأخذون حقاً لهم لا منّة ولا حسنة تحطّم نفوسهم وتشعرهم بالذلّ. يريد أن يشعروا أنّهم اخوان لنا لا نلقي إليهم النفايات، يريد أن يظلّوا على ثقة من أنّ مجتمعهم يرعاهم لأنّه يمنحهم بعض حقهم، وأنّهم ليسوا عالة على أحد!.. هذا هو الإنسان العظيم، والمنظّم الممتاز. لا تصعِّر خدك لهم. وتفقد امور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحتقره الرجال. هذه النظرة الإنسانية الرفيعة، يوجب على المسؤول أن يتفقّد امور الناس فلا استدعاء ولا شهادة مختار، ولا وساطة وجيه. أنت مسؤول فتفقّد. ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أُمورهم، ثم اعمل فيهم بالاعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإنّ هؤلاء من بين الرعيّة أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقّه إليه. وتعهّد أهل الشيم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك على الولاة ثقيل، والحق كلّه ثقيل. وقد يخفّفه الله على أقوام طلبوا العافية فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم!...»

أجل طالب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بكل هذا، لكنّ الإمام العظيم سبق بنظرته الإنسانية إلى ذلك فأوجب إيجابا، ولم يطالب به مطالبة!

فلله أنت أبا الحسن، من رجل فذّ ومنظّم ممتاز!

الإمام والراعية

قد تكون كلمة الرعية ثقيلة على السمع، إذا كان الراعي غير أبي الحسن. أما والراعي في مثل هذه الأمانة، وفي مثل هذا الخلق الأبوي، فإننا لانجد كلمة ألطف منها، ولا أرق منها في هذا المقام!

إنّ أبا الحسن رجل أعمال، إنّه عليه السلام فيلسوف يسير في ظل تعاليمه، فلا يملأ آذاننا بالصخب والضجيج والأقوال الفارغة، وبعد أن تلهب الأكفّ تصفيقاً له والحناجر المأجورة تمجيداً لبلاغته، يعود الجائع إلى بيته جائعاً، والمحروم ذليلاً.

أبو الحسن لا يطلب إلاّ الحق. «كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون!».

أبو الحسن أوّل من قال: «إنّ أعظم الخيانة خيانة الأُمّة.»

أبو الحسن أوّل من قال إنّ الولاة هم خدّام للرعية، وليست الرعية إقطاعا لهم: [أنتم] خزان الرعية، ووكلاء الامّة، وسفراء الأئمة.»

فالرعية عند الإمام هي الغاية، وخدمتها غاية الغايات. فاسمع ما يقول:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، واللّطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم اكلهم، فإنّهم صنفان:

أ - أخ لك في الدين.

ب - أو نظير لك في الخَلْقِ.

يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فاعطهم من عفوك وصفحك، مثل الذي تُحِبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه!»

الإمام لا يكتفي بهذا بل يدعو الوالي إلى الإتّصال برعيته وأن لا يطيل الإحتجاب عنهم.

« فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإنّ احتجاب الولاة عن الرعية، شعبة من الضيق، وقلة علم بالامور، والإحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل. وإنّما الوالي بشر، لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الامور. وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب.»

« وإن ظنّت الرعية بك حيفاً فاصحر لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم باصحارك، فإنّ في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقاً برعيّتك، وإعذارا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحقّ!»

« واعلم أنّه ليس شيء بأرعى إلى حسن ظن راع برعية من إحسانه إليهم. وتخفيفه المؤونات عنهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فإنّ حسن الظنّ يقطع نصباً طويلا، وإنّ أحق من حسن ظنك به لمن حُسنَ بلاؤك عنده. وإنّ أحقّ من ساء ظنك به، لمن ساء بلاؤك عنده».

ألاحظت رأي الإمام في الرعية، وفي سياستها والإحسان إليها؟

أرأيت أنّ الإمام يرى في المسؤولين خدّاماً للشعب وأنّه لا قيمة حقيقية لهم إلاّ بمقدار ما يوفّرون للشعب من السعادة من أجل هذا عذب في فمي لفظ الرعية، مع أنّي لا اسيغه فلقد عذب من فم الإمام لأنّ الكلمة تحمل قلب الإمام الكبير كلّما رددها!

« أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنّك الاّ تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده... وليكن أحبّ الامور إليك أوسطها في الحقّ، وأعمّها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإنّ سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وإنّ سخط الخاصّة يغتفر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقلّ معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقلّ شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذرا عند المنع، وأضعف صبرا عند ملمّات الدهر من أهل الخاصة .

وإنّما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الامّة. فليكن صفوك لهم وميلك معهم!...».

لا يكتفي الإمام بأن يجعل كل شيء لخدمة الشعب، ولا يكتفي بأن يكون الوالي والمسؤول وقفاً على إقامة شؤون رعيته بل يوجّه بانفاق المال على ذوي الحاجة:

«فانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله، فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة. مصيباً به مواضع الفاقة والخلّات، وما فضل من ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا!»

لم يكتف الإمام بالذي ذكرنا بل ما يجب للرعية على راعيها وما يجب له عليها «فأمّا حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تتعلموا».

وأمّا حقي عليكم، فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم!»

فَمِنْ هنا، نرى أنّ الإمام قد سنَّ اموراً لم تكن واضحة المعالم قبله ووضع من المناهج الداشنة مالم يحصل عليه الناس في أرقى الامم المتمدّنة إلاّ بعد ثورات دامية وحروب تشيب لهولها الولدان!

فعاش حياته من أجل الشعب، واغتاله البائسون وهو يفكّر في ما يسعد الشعب!

سوابق الإمام علي لحقوق الإنسان

نلاحظ أنّ الإمام علياً، قد صاغ المادة الاولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان - قبل أن يكون هنالك منظّمة عالمية تضم مائة واثنين وعشرين دولة بأجيال عديدة - صاغها باسلوب إيجابي، يناجي به ضمير الإنسان، ويجعله في ثورة دائمة على الظلم والإستعباد!

فإذا كانت الأنظمة التي سنّها البشر تظل حبراً على ورق؛ لأنّها لا تجد المنفّذين المخلصين، فإنّ الإمام علياً يضع في ضمير كل من يسمع صوته بذور العزّة والعظمة والشعور بالكرامة الإنسانية، فلا يذلّ، ولا يتهاون في حقّ نفسه، ولا في حقّ سواه: «لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حرّا!»

وإذا كان عمر بن الخطاب قد قال: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا؟» فإن الإمام قدّيس الإسلام، أراد أن يضع في قلب كل إنسان - كائنا من كان الشعور بالعزّة والإحساس بالإنسانية، فلا يسمح لطاغية أن يلوث فطرة الله التي فطر عليها خلقه.

فرق عظيم بين أن نلوم المُستعبِدين المُستَبِدّين، ونصب عليهم سوط عذاب، وبين أن نزرع العزّة في النفوس، أنا لا أُنكر قيمة ما فاه به عمر بن الخطاب، ولا يمكن للتاريخ أن ينسى موقفه ممن يستغلون مناصبهم ومناصب آبائهم ليتعالوا على الناس ويظلموهم. لكنّ الفرق بين قول أسد الإسلام وقول عمر بن الخطاب، كالفرق بين من يطعم الجائع وجبة من الطعام، وبين من يهيّىء للمحتاج عملاً شريفاً لمدى الحياة، يحفظ عليه كرامته، ويقيه من التسوّل، ويجعله سيّد نفسه!...

فكلمة الإمام علي، إهابة بالإنسان أن يثور على ذلّه، ويطرح أغلال عبوديّته. هي وثبة عبقريّة تدوس الظلم والطغيان وتئدهما وأداً أبديّاً!...

في كلمة الإمام تقرير ضمني أنّ الحرية أثمن من الحياة نفسها، وأنّه ليس هنا لك ما يستحقّ أن تبذل في سبيله الحياة رخيصة سوى الحريّة التي وهبها الله للإنسان حقّاً طبيعيّاً، فلا يحقّ لإنسان مهما علت منزلته وارتفع سلطانه، وبلغت سيطرته، أن يعتدي عليها، أو يسلبها. لأنّ سلب الحريّة معناه سلب الناس شرفهم، وما قيمة الحياة بلا شرف؟ إنها أحقر من ميتة العبيد!

فكأنّما الإمام يقول: «إن حاول محاول أن يسلبك الحرية، فمعنى ذلك أنّه يحاول أن يعتدي على روح الله، وصورة الله في إنسانيتك، وإنّ الواجب يدعوك أن تدافع عن هذه الهبة المقدّسة، التي لا قيمة للحياة بدونها. لأنّها هي الشرف، والشرف أثمن من الحياة!

الإمام القدوة يعلّمنا الحرية، لأنّه يرى نفسه مسؤولاً عن صيانة حقوق الإنسان - كل إنسان - من أجل هذا فهو يقول، ويعمل بما يقول:

«الذليل عندي عزيز، حتى آخذ الحق له، والعزيز عندي ذليل، حتى آخذ الحق منه!»

فإذا كان الاعلان العالمي - بعد كل التطوّر الذي مرّ على ضمير البشرية - قد طلب أن يعامل السجين معاملة إنسانية، فإنّ الإمام قد فرض قبل صدور هذه الوثيقة الإنسانية العظمى بأجيال عديدة، أن يكون السجن وسيلة تهذيب، لا طريق إذلال، ومقدّمة وأد، وأوصى للسجين بالمأكل والمشرب والملبس، في الصيف والشتاء، وتجاوز ذلك طالباً توفير ما يضمن له بعد خروجه من السجن ما يضمن له إنسانيته!

وإذا كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان قد طالب بالمساواة، فإنّ دستور الإمام - حتى للولاة - إنّما هو المساواة، التي تنمّ على الاخوّة والرفق بالناس:

«إيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة!.»

«إنّ هذا المال ليس لي، وليس لك!»

«لا يسعنا أن نعطى امرءا أكثر من حقه!»

الإمام وهو بين يدي الله، يدعو بنيه ناسياً الموت، وأهوال الموت، يدعوهم وعلى رأسهم الحسن «ع» ويفيض من نفسه في نفوسهم ذخيرة من العطف والرحمة التي يوجبها حقّ الإنسان على أخيه الإنسان!.

«الله الله في الفقراء والمساكين أشركوهم في معائشكم!»

لقد كان الإمام كرّم الله وجهه نجماً يُهتدى به، وقد قال عمر بن الخطاب ما يثبت قولنا: «كنا ننظر إلى علي في أيام النبي كما ننظر إلى النجم!»

فهذا النجم كان منارة يهتدى به لولا المطامع الدنيوية، والأحقاد الجاهلية، والضغائن القبلية، والأفكار الضيقة التي تسيطر عليها العنجهية

فرحِم الله أبا السبطين ما كان أعظمه!

لقد كان ربيب النبي الوفي، وأخاه الصادق الأمين.

كان البطل المعلّم الفذّ.

كان المشرّع البارع، والمجتهد العبقري الذي نهل من معين عبقريته كل مجتهِد.

كان منهلا من الخير والنبل لا يغيض ولا ينضب.

كان الخليفة القدوة، والإنسان العظيم، الذي سبق كل سابق إلى حقوق الإنسان!

الإمام عليّ عدو التعصب

كأن الله جلّ جلاله، قد صاغ نفس الإمام من السماحة والشجاعة الأدبية وجعل له قلباً نفخ فيه الرحمة والعدل، والشعور بالمسؤولية، فعاش إلى أن لقي ربه عدوّا للتعصب خصماً للافق الضيق والصدر الحرج.

فكم من مرة، شاهد الناس أسد الإسلام وقِدّيسه معتّماً بعمامته الخضراء يردد ما قاله مرة في مسجد المدينة:

«من آذى ذميّاً فقد آذاني!»

وكأنّما هو قد اتخذ قول ابن عمه العظيم «محمد بن عبد الله» شعاراً:

«الأنبياء اخوة امهاتهم شتى ودينهم واحد!».

فما دام الأنبياء اخوة فأتباعهم يجب أن يكونوا اخوة، هذه هي السماحة النفسية في أروع معانيها.

فابن عم النبي وختنه، الذي سجل القران الكريم بيده الشريفة لا يفهم التعصّب، لأنّ التّعصّب ضيق في الآفاق النفسيّة، وتحجّر في القلب، وإبعاد بالدّين عن غرضه الأسمى، وهو إشاعة الخير، والحبّ والإخاء بين البشر، وتطهير للنفوس من رواسب الجاهلية العمي، وأحقادها الصم!

ألم يقل كرم الله وجهه: «لو ثنيت لي الوسادة لحكمت في أهل التوراة بتوراتهم، وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم، وفي أهل القرآن بقرآنهم، حتى تركت كل كتاب ينطق من نفسه!»

أليس قوله هذا دليلاً قاطعاً على أنّه لا يقر شيئاً اسمه التعصّب؟ أو مفاضلة بين الناس؟ فالمسلمون وغير المسلمين في نظر الإمام سواسية!

فكلّ الذي كافحت الإنسانية في سبيل الحصول عليه باراقة أنهار الدماء هو عند الإمام من البديهات.

فلمّا بعث بعهده إلى «محمد بن أبي بكر» عندما ولاه مصر، قال: «واوصيك بالعدل على أهل الذمة، وبانصاف المظلوم، وبالشدّة على الظالم وبالعفو عن الناس، والإحسان ما استطعت. وليكن القريب والبعيد عندك في الحق سواء.»

ولعلّ أعظم دليل على أنّه خلق وهو عدو للتعصّب، يؤمن بالمساواة، أنّه جعل، دية النصراني مثل دية المسلم، وأنّه قال: «أموالهم كاموالنا، ودماؤهم كدمائنا!»

فإذا كان الجهلة في كل مذهب قد شوهوا جمال الأديان وروحانيتها فإنّ الإمام الأعظم قد جعل الدين اخوّة إنسانية، ومعقلا تلجأ إليه كرامة الإنسان من حيث هو إنسان!... الإمام علي بفطرته المصفّاة ونفسه السمحة وقلبه الرحيم الكبير أدرك أنّ التعصّب بَرَصٌ للنفس، وسرطان يفتك بروح الدين وامتهان لكرامة عباد الله من بني الإنسان، وتدمير لحقيقة الدين وجوهره، من أجل هذا كان الإمام علي حرباً على التعصّب!

فحارب التعصّب القبلي، لأنّه جاهلية تطفىء نور الضمير، حارب الجهل لأنّه يقود إلى التعصب حارب الكبرياء والعجرفة، لانّهما دعامتان من دعائم التعصّب فالتعصّب في رأي الإمام - ولا رأي سواه - مردّه إلى أصلين لا ثالث لهما:

أ - الجهل.

ب - والسفاهة.

قال الإمام: «ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلاّ عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة تليط بعقول السفهاء!

فإذا رأينا الإمام يتحمّس فإنّما هي حماسة في نصرة الفضيلة!

وما أعظم الفرق بين الحماسة للفضيلة، والتعصّب الأرعن وليد السفاهة والجهل!

فاسمع ما يقول الإمام: «فإن كان لا بدّ من العصبية، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحاسن الامور والأخلاق الرغيبة والأحلام العظيمة، والآثار المحمودة والأخذ بالفضل والكف عن البغي، والإنصاف للخَلْقِ، واجتناب المفاسد في الأرض!...»

الإمام يضرب لنا أروع الأمثلة التي تصكّ كل طاغية في الأرض وكل عتل زنيم، يضرب مثلاً في البراءة من التعصّب الذي يتّخذه الطغاة دستوراً لهم في الحياة، ليستروا ما هم فيه من عَمَهٍ وعمياة فيوحون إلى أتباعهم أنّ أراءهم مقدّسة، لا تقبل المناقشة وأنّهم لا يخطئون.

أمّا الإمام - عدو التعصّب - فيقول:

«لا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل فإنّي لست في نفسي بفوق أن اخطىء!»

فباب مدينة العلم، الذي من عِلمه نهل كل عالم في الإسلام، وكل فقيه في الفقه، وكل متكلّم في علم الكلام، لا يتعصّب لآرائه - وإن كان له الحق في أن يتعصّب -

الإمام عدو للطغيان الذي يقود إلى التعصّب فاسمعه يقول:

«ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبّروا عن حسبهم وترفّعوا فوق نسبتهم، وجاحدوا الله ما صنع فإنّهم قواعد أساس العصبيّة، ودعائم أركان الفتنة!» أجل دعائم أركان الفتنة التي هي شَرٌّ من القتل، والعياذ بالله!....

الإمام يرى أنّ التعصب أصل لكل الشرور في الحياة، وهو المؤدّي إلى الظلم الذي هو أساس لخراب البلاد وهذا ما يقول كرم الله وجهه:

«لو سلكتم الحقّ... وأضاء لكم الإسلام، لما ظُلِمَ منكم مسلم ولا معاهد!»

أمّا سماحة الإمام النفسية، فيصوّرها لنا وهو يتكلّم عن النبي وعن المسيح، فتجيء كلماته عسلاً مصفّى تنمّ على صفاء في النفس، وأريحية في الطبع، ونبل وعظمة في الخلق:

« وقد كان في رسول (ص) كاف لك في الاسوة، إذ قبضت عنه أطرافها وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها، وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام، فقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشب، وكان أُدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما أنبتت الأرض للبهائم، ولم يكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه، دابته رجلاه، وخادمه يداه!... »

أمّا رأيه في اتباع المسيح فهو:

« أولئك قوم اتّخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشا، وماءها طيبا، ثم قرضوا الدنيا على منهاج المسيح!... »

ولعلّ خير ما أختم به هذا الحديث قوله:

« فلا تستصغرنَّ عبدا من عبيد الله فربما يكون وليه وأنت لا تعلم! »

وقوله:

« فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره ما تكره لها، وارض من النّاس ما ترضاه لهم من نفسك! »

فما أسمى هذه النفس التي تطهّرت من مرض التعصّب، وسمت فوق صغائر الحياة!...

الباب الخامس

الإمام الحكيم

هناك هبات يخصّ بها الله بعض عباده فقد خصّ الله الإمام عليّاً بخصائص كثيرة منها الحكمة والكلمات الجامعة وها نحن نورد نخبة من حكم الإمام وكلماته الجامعة التي سارت على كلّ شفة وكل لسان لما فيها من لباب التهذيب النفسي:

إيمان المرء يعرف بأمانه.

أدب المرء خير من ذهبه.

أداء الدَّين من الدِّين.

أحسن إلى المسيء تسد.

أخوك من واساك بنشب، لا من واساك بنسب.

بشّر نفسك بالظفر بعد الصبر.

بركة المال في أداء الزكاة.

بع الدنيا بالآخرة تربح.

بكاء المرء من خشية الله تعالى قرة عين.

بطن المرء عدوه.

بلاء الإنسان من اللسان.

بشاشة الوجه عطيّة ثانية.

تكاسل المرء في الصلاة، ضعف في الإيمان.

تدارك في آخر العمر ما فاتك في أوّله.

ثلمة الدين موت العلماء.

ثبات الملك بالعدل.

ثواب الآخرة خير من نعيم الدنيا.
ثناء الرجل على معطيه مستزيد.
جد بما تجد.
جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى قيام الساعة.
جودة الكلام في الإختصار.
جليس المرء مثله.
خف الله تأمن غيره.
خالف نفسك تسترح.
خير الأصحاب من يدلّك على الخير.
خليل المرء دليل عقله.
خوف الله يجلو القلوب.
خير المال ما انفق في سبيل الله.
دليل عقل المرء فعله، ودليل علمه قوله.
دوام السرور برؤية الإخوان.
دم على كظم الغيض تحمد عواقبك.
ذنب واحد كثير، وذكر ألف طاعة قليل.
ذكر الأولياء ينزل الرحمة.
ذكر الموت جلاء القلوب.
ذكر الشباب حسرة.
رؤية الحبيب جلاء العين.
رفاهية العيش في الأمن.
رسول الموت الولادة!..
زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا.
زيارة الضعفاء من التواضع.
زينة الباطن خير من زينة الظاهر.
سيرة المرء تنبىء عن سريرته.
سمو المرء التواضع.
شيبك ناعيك.

شحيح غني، أفقر من فقير سخي.
صدق المرء نجاته.
الصبر يورث الظفر.
صلاة الليل، بهاء النهار.
صلاح الإنسان في حفظ اللسان.
صاحب الأخيار تأمن الأشرار.
صمت الجاهل ستره.
صلاح الدين في الورع، وفساده في الطمع.
ضَلّ من ركن إلى الأشرار.
طاب من وثق بالله.
طلب الأدب أولى من طلب الذهب.
ظلم المرء يصرعه.
ظلامة المظلوم لا تضيع.
عش قنعا تكن ملكا.
عيب الكلام تطويله.
عاقبة الظالم وخيمة.
غدركَ، من دلّك على الإساءة.
فاز من ظفر في الدين
فخر المرء بفضله أولى من فخره بأصله
فاز من سلم من شر نفسه.
فسدت نعمة من كفرها.
قبول الحق من الدِّين.
كلام الله دواء القلب.
كفران النعمة مزيلها.
كفى بالشيب داءً.
كمال العلم في الحلم.
لين الكلام قيد القلوب.

من كثر كلامه كثر ملامه.
مجلس العلم روضة من رياض الجنة.
مصاحبة الأشرار ركوب البحر.
نسيان الموت صدأ القلب.
نم آمنا تكن في أمهد فراش.
نضرة الوجه في الصدق.
ولاية الأحمق سريعة الزوال.
وحدة المرء خير من جليس السوء.
هَمُّ السعيد آخرته وهمُّ الشقي دنياه.
هلاك المرء في العجب.
هربك من نفسك أنفع من هربك من الأسد.
لا دِينَ لمن لا مروءة له.
يعمل النمّام في ساعة فتنة أشهر.
يسود المرء قومه بالإحسان إليهم.

آراء للإمام لا تموت

★ إذا أقبلت الدنيا على أحد، أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

★ خالطوا الناس مخالطة إن متّم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنوا إليكم.

★ إذا قدرت على عدوّك، فاجعل العفو عنه، شكراً للقدرة عليه.

★ أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان. وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

★ إذا وصلت إليكم أطراف النعم، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر.

★ أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلاّ ويد الله بيده يرفعه.

★ من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب.

★ يا ابن آدم! إذا رأيت ربَّك سبحانه، يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه، فاحذره.

★ ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه.

★ إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى!...

★ فاعل الخير خير منه. وفاعل الشر شر منه.

★ كن سمحاً ولا تكن مبذّراً. وكن مقدّراً، ولا تكن مقتّراً.

★ من أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما يعلمون!...

★ لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه.

★ احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

★ عيبك مستور، ما أسعد جدك!

★ السخاء ما كان ابتداء، فأما ما كان عن مسألة فحياء وتذمم!

★ من حذّرك كمن بشّرك.

★ من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم.

★ خذ الحكمة أنّى كانت، فإنها تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتّى تخرج، فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن.

★ قيمة كل امرئٍ ما يُحسِنه.

★ بقيّة السيف ابقى عددا، وأكثر ولداً.

★ من ترك قول لا أدري، اصيبت مقاتله.

★ رأي الشيخ، أحبّ اليَّ من جلد الغلام.

★ إنّ هذه القلوب تملّ، كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم.

★ عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إيّاه طلب. فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء!....

★ الدنيا دار ممر، إلى دار مقر. والناس فيها رجلان:

أ - رجل باع فيها نفسه فأوبقها.

ب - ورجل ابتاع نفسه، فاعتقها!

★ لا يكون الصديق صديقاً، حتى يحفظ أخاه في ثلاث:

أ - في نكبته.

ب - وغيبته.

ج - ووفاته!...

★ عاتب أخاك بالإحسان إليه.

★ الهمّ نصف الهرم.

★ المرء مخبوء تحت لسانه.

★ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

★ الناس أعداء ما جهلوا.

★ أصدقاؤك ثلاثة، وأعداؤك ثلاثة، فأصدقاؤك:
صديقك، وصديق صديقك، وعدو عدوك.
وأعداؤك: عدوك. وعدو صديقك. وصديق عدوك.
★ ردوا الحجر من حيث جاء. فإنّ الشر، لا يدفعه إلا الشر!..
★ ماء وجهك جامد، يقطره السؤال، فانظر عند من تقطره!
★ من سلّ سيف البغي قتل به، ومن كابد الامور عُطِب، ومن اقتحم اللجج غَرِق؛ ومن دخل مداخل السوء اتّهم!
★ من نظر في عيوب الناس فأنكرها، ثم رضيها لنفسه، فذاك الأحمق بعينه. ومن نظر في عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره!
من صارع الحق صرعه.
★ لا تقل مالا تعلم. بل لا تقل كل ما تعلم.
★ الولايات مضامير الرجال.
★ القرابة إلى المودّة أحوج من المودة إلى القرابة.
★ من أُعطي أربعاً، لم يحرم أربعاً:
أ - من أُعطي الدعاء، لم يحرم الإجابة.
ب - ومن أُعطي التوبة لم يحرم القبول.
ج - ومن أُعطي الاستغفار لم يحرم المغفرة.
د - ومن أُعطي الشكر، لم يحرم الزيادة!...
★ منهومان لا يشبعان:
أ - طالب علم.
ب - وطالب مال.
★ أمّا رأيه هذا، فما قرأته إلاّ شعرت بشيء كثير من روعة التأمّل وجلال الهيبة:

« لقد علق نياط هذا الإنسان بضعة، هي أعجب منه، وذلك القلب. وله مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها »:

« فإن سنح له الرجاء أذلّه الطمع؛ وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص؛ وإن ملكه اليأس، قتله الأسف؛ وإن عرض له الغضب، اشتدّ به الغيظ؛ وإن أسعده

الرضى نسي التحفّظ؛ وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمن استلبته الغيرة، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف؛ وإن أفرط به الشبع كظته البطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط به مفسد.

مسكين ابن آدم! مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تؤلمه البقّة، وتقتله الشرقة. وتُنتِنه العرقة.

من شعر الإمام علي

(.. ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وخطره، وسمِعه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأثاب عليه...) مقدمة ابن خلدون صفحة ٥٨١

يُنسب للإمام علي شعر، وقد قرأنا ديواناً من الشعر منسوباً إليه. ونحن لا نستبعد أن يكون للإمام شعر، لأنّه لم يرد في القرآن الكريم تحريم للشعر، وما جاء في سورة الشعراء ليس تحريماً، لكنّه ذم لفئة خاصة من الشعراء تجعل شعرها وسيلة للإفساد أو هجاء الناس.

« والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنّهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون، إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظُلِموا، وسيعلم الّذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون. »

ومن الشعر المنسوب اليه:

« لكلّ اجتماع من خليلين فرقة وإنّ الذي دون الفراق قليل
أرى علل الدنيا عليَّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل.
وإنّ افتقادي واحداً بعد واحد دليل على أنْ لا يدوم خليل! »

ومن شعره يوم مقتل عمار بن ياسر بصفين.

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي أرحني، فقد أفنيت كل خليلِ
أراك بصيراً بالّذين احبّهم كأنّك تنحو نحوهم بدليلِ

وقال في مدح السفر والحثّ عليه، وهو يدل على ما في طبيعة العربي من حب المغامرة:

تغرَّب عن الأوطان في طلب العلى، وسافر، ففي الأسفار خمس فوائد!
تفرّج هم، واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد!
فإن قيل في الأسفار ذلّ ومحنة وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من مقامه، بدار هوانٍ بين واشٍ وحاسد!

ومن الديوان المنسوب إلى الإمام:

«إنّ الّذين بنوا فطال بناؤهم واستمتعوا بالمال والأولاد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنّهم كانوا على ميعاد

ومن شعره:

أبني إنَّ من الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر
فَطِن لكلّ رزية في ماله وإذا اصيب بِدِينِهِ لم يشعر

ومما ينسب اليه:

حلاوة دنياك مسمومة فما تأكل الشهد إلاّ بِسم
فكن موسرا شئت أم معسرا فما تقطع الدهر إلاّ بهم
إذا تمّ أمر بدا نقصه توقّع زوالاً إذا قيل تم

ومنه:

إذا النائبات بلغن المدى وكادت لهنّ تذوب المهج
وحلّ البلاء وقلّ العزا فعند التناهي يكون الفرج

ومنه:

هوّن الأمر تعش في راحة قلما هونته الاّ يهون
ليس أمر المرء سهلاً كله إنّما الأمر سهول وحزون
تطلب الراحة في دار العنا خاب من يطلب شيئاً لا يكون

ومنه:

أصم عن الكلم المحفظات واحلم والحلم بي أشبه
وإنّي لأترك جلّ المقال لئلاّ اجاب بما أكره
إذا ما اجترت سفاه السفيه علي فإني إذن أسفه

ولا تغــــترر برواء الرجـــــال وإن زخرفوا لـــــك أو موّهوا
فــكم من فــتى يعجــب الناظرين لــــه ألسن ولــــه أوجـــــه
ينـــــام إذا حضر المكرمــــات وعنـــد الدنـــاءة يستنبِه

ومنه:

إلام تجر أذيــــال التصــــابي وشيبــك قـد نفـى برد الشبـاب
بـلال الشيــب في فوديــك نــادى بأعـلى الصوت حيّ عـلى الذهـاب

هل كان الإمام شاعراً

إذا كان الشّعر هو الإحساس، والعاطفة الصادقة فالإمام شاعر، وإذا كان الشعر كذباً ونفاقاً، فما أبعد الشعر عن الإمام وما أبعده عن الشعر!..

يستدل الّذين يريدون أن ينفوا الشاعرية عن الإمام أنّه لمّا تعرّض الإسلام لهجاء مناوئه من قريش، قيل للنبي الكريم أن يأذن للإمام علي في هجائهم، وأنّ النبي أجابهم: «ليس بذاك!» ومعنى هذا عندنا، أنّ الإمام عليا ما خُلق للهجاء، ولا ينبغي له أن يكون هجّاءً. وليس في هذا القول ما ينفي الشاعرية عن الإمام.

وعندنا أنّ من أعظم الأدلّة على أنّ الإمام كان معروفا بين القوم بصدق النظر في الشعر، ونقده وقرضه، انّهم رشّحوه للرد على المناوئين للإسلام، وهو موقف له خطره العظيم، لكن النّبي «ص» الذي يعرف للإمام علي عليه السلام مقامه، أراد أن ينزّهه عن هذا الموقف. الذي يكثر فيه الوقوع في أعراض الناس. وليس الإمام من هذا المستوى، ولا من هذا الطراز من الناس، اذاً فجواب النبيّ للقوم لا يدل على أنّ الإمام ليس بشاعر!

هنالك دليل حاسم على تفوّق الإمام في تذوّق الشعر وسداد الحكم في التفريق بين جيده ورديئه فقد سئل:

«من أشعر الناس؟».

فأجاب: «إنّ القوم لم يجروا في حلبة تعرف الغاية عند قصبتها ولا يكون القيم بالتفضيل إلاّ على التغليب!...»

فهذا قول رجل بصير يدرك ما بين اتجاهات الشعر والشعراء من متاهات

تضلّل من يريد الحكم الصائب. والإمام الذي خلِق قاضيا نزيها بالفطرة، لا يريد أن تكون أحكامه مجازفات كأحكام العرب التي مرّت بنا ومررنا بها ونحن نتلقّى تلك الأحكام المشغلة بالمجازفات والكثير من المغالطات. يوم قالوا:

«أبرع بيت قالته العرب، قول الهذلي.».

«والنفس راغبة إذا رغّبتها، وإذا تردّ إلى قليل تقنع!»

وأرثى بيت قول «عبدة»:

«فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنّه بنيان قوم تهدّما!»

وأصدق بيت قالته العرب قول الحطيئة:

«من يفعل الخير لا يعدم جوائزه، لا يذهب العُرف بين الله والناس!»

والأم بيت قالته العرب قول القائل:

«تلقى بكل بلاد إن حللت بها، أهلا بأهل، وجيرانا بجيران!»

وأخنث بيت قالته العرب قول الأعشى:

قالت «هريرة» لما جئت زائرها، ويلي عليك وويلي منك يا رجل!

وأجود بيت قالته العرب في الحرب، قول طفيل الغنوي:

«بجي إذا قيل «اركبوا» لم يقل له عوادير-يخشون الردى-أين نركب؟»

وأجود بيت في الصبر، قول «نافع بن خليفة»:

«ومن خير ما فينا من الأمر أنّنا متى مانواف موطن الصبر، نصبر!»

وابلغ بهم التحكم والشطط، أن حَكموا لبعض الشعراء بالإجادة والتفوّق والحكمة، من أجل نصف بيت من الشعر، فقالوا: «إنّ أعظم نصف بيت قالته العرب، هو قول الهذلي»:

«والدهر ليس بمعتب من يجزع!»

فأنت ترى أنّ القوم اعتبروا كل بيت من الشعر موضوعاً، وقصيدة وحكموا عليه، كأنّهم استعرضوا كل ما قالت العرب في هذا الباب!

ألم يقولوا إنّ أغزل بيت قالته العرب هو قول جرير:

«إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يورين قتلانا!»

وعادوا فقالوا اغزل بيت قالته العرب هو قول بثينة.

«لكـــلّ حديـــث بينهنّ بشاشة وكـــلّ قتيـــل عندهنّ شهيـــد!»

أجل قالوا هذا وخبطوا مثل هذا الخبط، الذي تنزّه عنه الإمام فكان قوله الذي تقدّم أول تصنيف للشعر أخذ به العصر الحديث من حيث تقسيم الشعر إلى مدارس، وأغراض!

فمن هنا نعلم أنّ الإمام كان شاعرا من طراز خاص، وإن كنّا نبخس بقية الشعراء حظّهم من الإجادة والتفوّق، ولا نريد أن نحصر الشعر في النصائح والحكم، لأنّنا نرى أنّ الشعر إحساس أصيل وعواطف صادقة، وكل من عبّر عن إحساس أصيل وعواطف صادقة باسلوب فنّي فهو عندنا شاعر ونرى أنّ هذا القياس ينطبق على أشعار الإمام انطباقاً تامّاً!.

علوم نسبت إلى الإمام

من الأقوال الخالدة: «لا يصح إلاّ الصحيح!..»

وهذا القول يظل جديداً وخالداً.

لقد نسبوا إلى الإمام علي «علم الجفر»، وقالوا إنّه هو علم النجوم والازياج، والأزياج فرع من فروع علم الهيئة.★

وقالوا إنَّ فيه إخباراً عن الامور الغيبية.

أنكر بعض الباحثين هذه النقطة، وعقد الخطيب المفوّه جواد شبّر فصلاً في كتابه اللّطيف «قبس من حياة أمير المؤمنين عليه السلام» عنوانه «العالِم الرَباني» ذكر فيه اموراً تشير إلى علم الإمام بالهيئة، وأنّه أوّل من دعا إلى ريادة الفضاء.

يقيناً، أنّه لو صح هذا أو لم يصح فإنّه لا يزيد عظمة الإمام شيئاً ولا ينقصها،

★ - وقد ألّف العرب كتبا في هذا الموضوع، دعيت بهذا الإسم ويعني كتاب الجداول وأشهر من وضعوا فيه المؤلفات:

أ - ابن حمّاد الأندلسي. ب - إبن الشاطر الدمشقي. ج - أبو حنيفة الدنيوري. د - أبو معشر البلخي. هـ - الوع بك محمد بن شاهرفه. و - محمد الطوسي. ز - وقد ألّف ابن يونس المصري كتاب (الزيج الكبير الحاكمي) نزولاً عند رغبة العزيز أبو الحاكم صاحب مصر. ونشره اكوين دي برسفلي) بنباريس سنة ١٨٠٤.

فالناس يعدّون الرجل عظيماً إذا تفوّق في أحد المجالات، وقد رأينا تفوّق الإمام في كل مجال، وأنّه سبق عصره بمئات السنين، وأنّ الأجيال المقبلة ستكشف في شخصيته الفذّة عناصر جديدة من العظمة وفي علومه وخطبه أسراراً تحيّرهم لكنّ نسبة اطلاعه على الغيب، هذه نفاها الإمام «ع» نفسه يوم قال بعض أصحابه: «لقد أُعْطِيتَ عِلْمَ الغيب.»

فضحك الإمام عليه السلام وقال للرجل: «ليس بِعلم غيب هو تعلّم من ذي علم، إنّما علم الغيب علم الساعة، وما عدّد الله سبحانه بقوله:

«إنّ الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس باي أرض تموت، إنّ الله عليم خبير» سورة لقمان الآية الـ ٣٤.

فالنفوس المتسامية لها وثبات تُكْشَفُ أمامها أسرارٌ لا تستطيعُ النفوس المتثاقلة أن تصلَ إليها.

وسواء أكان ضحك الإمام تواضعاً، أم كان نفياً باتاً، فإنّه لم يرِد أن يفتتن أصحابه به، وينسبوا إليه اموراً يراها من حقّ الله وحده.

ونحن نكتفي في هذا المقام بشهادة الشيخ الرئيس إبن سينا القائل:

«كان علي من العلوم في المحلّ الذي لا تحلّق إليه البشر!».

وهذه الشهادة من صاحب تلك العقلية الجبارة كافية أن تشير لمنزلة الإمام العلمية السامية.

ومهما ينكر المنكرون على الإمام، فإنّهم لا يستطيعون أن ينكروا هذه الامور:

أ - إنَّ جميع الفِرَق الإسلامية مدينة للإمام علي من اليوم الذي برزت فيه للوجود.

ب - إنَّه إمام الفقه والشريعة.

ج - إنَّه إمام البلاغة وهو الذي سنَّ البلاغة لقريش.

د - إنَّه مبتكر لعلم النحو.

هـ - إنَّه الخطيب المفوّه الذي لا يجارى وحسبه شهادة، نهجه الخالد المخلّد.

ز - إنَّه مبتكر في امور كثيرة.

ح - إنَّه سابق لعصره، وإنّ له أفكاراً في التنظيم الإجتماعي ومكافحة الفقر وحقوق الإنسان، لم يتوصل العصر إلى ما هو مما يعالج المشكلة، ويعالج ما يتصل بها من الأمراض النفسية في المجتمع.

ط - إنّ له من الكلمات الجامعة ما يدلّ على عبقرية لا حدّ لها.

ي - إنَّ له من الآراء الحيّة التي لا تموت حظاً غير منقوص.

ك - إنَّه الفارس الذي لم ينهزم أمام خصم.

ل - إنَّه الكريم الجواد الذي يجاري البحر فيضاً والريح كرما.

م - إنَّه الرحيم الذي يَرِقُّ رِقَّة الأنبياء ويرحم رحمة أطباء الإنسانية، الذين خلقوا أُساة لضعف البشر ومسكنة بني الإنسان.

حقّاً إنّي لا اريد أن تلصق بالإمام أساطير وخرافات، لا تزيد في قيمة الإمام، فأنا أنظر إلى عظمة الإمام من خلال ما حقّق للإنسانية من الإطمئنان، وما حقّق للمجتمع من عدالة اجتماعية. وما حقّق للعلوم من ابتكارات، وما حقّق للغة العربية من اسس التنظيم والخلود!...

أثر الإمام في مثقفي العرب

يقينا، إنّ كلّ مثقف عربي، كل كاتب عربي، كل شاعر عربي، كل خطيب عربي مدين للإمام علي. فإذا كان كل مسلم في الدنيا مدين للقرآن الكريم في تكون عقليته وتفكيره فإنّ كلّ مثقف عربي مدين لنهج البلاغة في تقويم قلمه.

وما أعدت قول اليازجي العظيم إلاّ ازددت اقتناعا بما أقول، قال إبراهيم اليازجي: « ما اتقنت الكتابة إلاّ بدرس القرآن ونهج البلاغة » وإبراهيم اليازجي إذا أردنا أن نحكم على رجل من رجال القلم بالنسبة إلى كل علوم اللّغة العربية مجتمعة لا نجد في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من يتفوّق عليه. وإن كان في كل علم من علومها على انفراد يوجد من ينافسه ويتفوق عليه.

إذا كان اليازجي يقول هذا، فإنّ كل مثقف عربي مدين لنهج البلاغة وللإمام علي في استقامة نهجه الكتابي. وانطلاقا من هذه النقطة، فنحن لا نعدّ كاتباً أو أديباً عربياً مثقّفاً ثقافة عربية أصيلة إن لم يقرأ القرآن ونهج البلاغة قراءات عميقة متواصلة.

فالذي يريد أن يفهم المجتمع العربي، والعقلية العربية لا بد له من قراءة نهج البلاغة. والذي يريد أن يفهم اسلوب الحكم في البلاد العربية يحتاج إلى نهج البلاغة.

الفقيه الذي يرغب في أن يكون نافذ الفكر، مستنير البصيرة، هو في أقصى الحاجة إلى نهج البلاغة.

رجل الوعظ المسلم الذي يريد أن يكون واسع الآفاق محتاج إلى نهج البلاغة،

وإن لم يفعل، فإنّه ظلام لنفسه، قليل الإحترام لعقله قرأت شيئاً إسمه « تشريح شرح نهج البلاغة » فشعرت باشفاق على عقلية الرجل. وذكرتُ حالاً قول ابن العميد على كتب الجاحظ:

« كتب الجاحظ تعلّم العقل أوّلاً والأدب ثانيا »

ونهج البلاغة في اعتقادي يعلّم العقل أولاً والأدب ثانيا وأساليب كل فن من: الكتابة والخطابة ثالثا، ويطّلع منه الإنسان على امور لا أعتقد أنّها توجد في كتاب واحد كلّها مجتمعة.

قال الشيخ محمد عبده وهو يذكر نهج البلاغة: « فأجدر بالطالبين لنفائس اللّغة والطامعين في التدرّج لمراقيها أن يجعلوا هذا الكتاب أهمّ محفوظهم، وأفضل مأثورهم. مع تفهّم معانيه في الأغراض التي جاءت لأجلها: وتأمّل ألفاظه في المعاني التي صيغت للدلالة عليها، ليصيبوا بذلك أفضل غاية وينتهوا إلى خير نهاية »

وبعد فأنا أنظر إلى الكتاب على اعتبار أنّه كنز ثمين لا غنى لمتأدّب عنه. وأنظر إلى صاحب هذا الكتاب، فأرى أنّه طوّق جيد اللّغة العربية بِمِنّة لا تزول حتّى تزول الأرض ومن عليها.

وعندي أنّه إذا ثبت كل ما في نهج البلاغة للإمام علي، فهو معجزة أدبية وإذا أراد النافون أن ينفوه عنه وينسبوه إلى جامع الكتاب، فتكون معجزة الإمام أعظم، إذ يستطيع حبّه أن يملي على محبيه أن يأتوا بمثل هذه الدرر الغوالي!

فاثباته نهج البلاغة للإمام ونفيه عنه يثبت عظمة الإمام الخالدة، ولا ينفى الدَّيْن الذي للإمام على مثقفيّ العرب كافة.

كلمة نختتم بها الكتاب

أبا الحسن!

أيّها الإمام العظيم

هذه انطباعات كانت تجول في خاطري نحوك من زمن بعيد!

حاولتُ أن اصوّر فيها نفسك الكبيرة شجاعتك وعلمك سخاءك وجودك

كتبت ما أشعر به أنّه حق، واعتمدت على المراجع التي وثقت بها، ولا أقول إني اطّلعت على ما كُتِبَ عنك لأنّه شيء كثير وكثير!..

فإن نالت منك القبول يا أيها الإمام العظيم، فحسبي ذلك.

إنها كلمة لم يعوزها الإخلاص، ويقينا أنّ الكلمة التي تخرج من القلب لن تجد مستقرّاً لها إلاّ القلب.

سيقول بعض الذين ما تعوّدوا الصدق والإخلاص المجرَّدَين: «إنّ العزيزي متحمّس للإمام كأنّه من الشيعة» الحقُّ إنّي لست شيعيّاً ولست مسلماً بل أنا عربي نصراني كاثوليكي، ومن هنا تعلّمت أن أقول ما أعتقد حقّاً، كائنة ما كانت نتائجه وأنا فوق هذا أعتقد أنّ العظيم كل عظيم ليس ملكاً لفرقة ولا هو حكرة لدين أو مذهب، فأنا كما قال البحتري:

«وأراني من بعدُ أُكلف بالأشراف طرّاً من كـــل سنـــخ وأس».

الفهرس

الباب الاول

مقدمة	٥
مقدمة	١٧
بين يدي الإمام	١٩
صورة الإمام	٢٣
ولادة الامام علي	٢٥
شجاعته	٢٦
حلمه ولطفه	٢٩
انسانيته	٣١
زهده وتواضعه	٣٨
سخاؤه وجوده	٤١
عدله	٤٢
قضايا تدل على حكمته وعقله	٤٥
سداد الرأي وصدق الفراسة عند الامام علي	٤٩
عصر الإمام	٥٣
الإمام وكتابة القرآن وجمعه وترتيبه	٥٩

الباب الثاني

اضطهاد الإمام والتحامل على سمعته	٧١
علم الإمام علي	٧٥
كيف بايع الامام من سبقه	٨١
بيعة الامام علي	٨٥
حكومة الإمام	٨٩
سياسة الإمام	٩٢

الامام علي ومشكلة الفقر ٩٩
كيف حورب الامام علي؟ ١٠٣
معاملة الإمام علي للسيدة عائشة ١٠٧

الباب الثالث

النبي « ص » والإمام علي « ع » ١١١
الإمام وفلسفة الدين ١١٤
القائد الملهم ١١٧
الشيعة ١٢٥
الإمام علي والخوارج ١٢٩
حديث الغدير ١٣٢
أسرة الإمام علي ١٣٧
مثال في الزهد ١٣٩
الإمام المعلم والمؤدب ١٤٢
المبتكر العظيم ١٤٨
عظيم سبق عصره ١٥٢
خدمته للأقتصاد العربي ١٥٤
الإمام عدو للسفاهة ١٥٩
رأيه في اصناف المتعبدين ١٦٢
نفس اكبر من الدنيا واسمى من المطامع ١٦٤

الباب الرابع

المجدد العبقري ١٦٨
روح الدعابة ودلالتها النفسية ١٧١
الإمام عدو الجمود والحرفية ١٧٥
رجل فذّ ومنظّم ممتاز ١٧٩
الإمام والرعية ١٨٥
سوابق الإمام علي لحقوق الانسان ١٨٨

الإمام علي عدو التعصب ١٩١

الباب الخامس

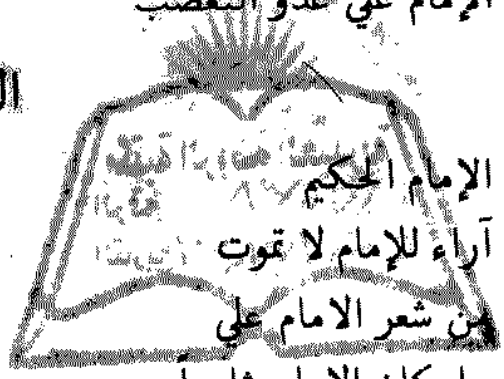

الإمام الحكيم ١٩٦
آراء للإمام لا تموت ٢٠٠
من شعر الامام علي ٢٠٤
هل كان الإمام شاعراً ٢٠٧
علوم نسبت إلى الإمام ٣٠٠
أثر الإمام في مثقفي العرب ٣١٣
كلمة نختم بها الكتاب ٣١٥

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٧٩٣٨
التاريخ/١٧/٣/٢٠٠٦